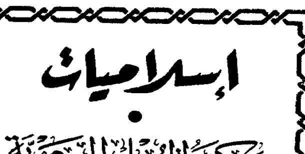
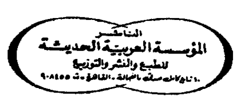




عنصر الهداية
فى القرآن الكريم

تأليف
الشيخ معوض عوض إبراهيم



سلسلة



إسلاميات

مسلسلة كتب إسلامية دورية تعرف المسلم بكل أمور دينه

○ عقيدة ○ فقه ○ تفسير ○ حديث ○ سيرة ○ ثقافة إسلامية ○ مشاكل العصر

بأسلوب ميسر يفهمه العامة . ويسعد به الخاصة

مراجعة هيئة كبار علماء
الجمعية الشرعية للعاملين
بالكتاب والسنة بالقاهرة

طباعة ونشر المؤسسة العربية الحديثة للطبع والنشر والتوزيع ـ المطابع ٨ شارع ٤٧ المنطقة الصناعية بالعباسية ـ المكتبات ١٠ ، ١٦ شارع كامل صدقي الفجالة ـ ٤ شارع الإسحاق بمنشية البكرى روكسي مصر الجديدة ـ القاهرة ت : ٨٢٦٢٨٠ ـ ٩٠٨٤٥٥ ـ ٢٥٨٦١٩٧ ج. م. ع.

بسم الله الرحمن الرحيم

« إن هـذا القرآن يهدى للتى هى أقوم ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجراً كبيراً * وأن الذين لا يؤمنون بالآخرة أعتدنا لهم عذاباً أليماً » .

« رب أوزعنى أن أشكر نعمتك التى أنعمت علىّ وعلى والدىّ وأن أعمل صالحاً ترضاه ، وأدخلنى برحمتك فى عبادك الصالحين » .

المدخل الى البحث

١ — هذا القرآن :

« الحمد لله الذى أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجاً * قيماً لينذر بأساً شديداً من لدنه ، ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجراً حسناً * ماكثين فيه أبداً * وينذر الذين قالوا اتخذ الله ولداً * ما لهم به من علم ولا لآبائهم ، كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذباً »(١) .

أحمدك اللهم كما ينبغى لجلال وجهك وعظيم سلطانك، نزلت الفرقان على عبدك (محمد بن عبد الله) آية اصطفاء ، وأمارة اجتباء ، وملأت ببيانه جنانه ، وأطلقت بقراءته لسانه ، وعلمته أن تطيب به نفسه وهو يقول : « إن وليّىَ الله الذى نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين »(٢) .

ذلك لأن القرآن الكريم سجل مفاخر البشرية ، وجماع أمر الأمة الوارثة ، ودستورها العاصم من زيغ العقيدة ، وضلال العبادة ، والتواء السلوك، وهو ينبوع شرفها وعزتها، ابتداء من بيان حق الله على عباده، وحق الإنسان على الإنسان، وحق هذه الحياة على الكائن البشرى، وانتهاء إلى التأهل للانتفاع بالقرآن ، والارتفاع إلى أعلى مرادات الله تعالى فى قوله سبحانه : « ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا، فمنهم ظالم لنفسه، ومنهم مقتصد، ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله، ذلك هو الفضل الكبير »(٣).

أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، نظم بالقرآن عقد الأحياء ، الذى تناثرت حباته فى كل واد، وجمعها بعد أن فرقتها الأهواء

---

(١) سورة الكهف ، الآيات ١ — ٥ (٢) سورة الأعراف ، الآية ١٩٦

(٣) سورة فاطر ، الآية ٢٢

شيعاً وأحزاباً ، ووضع منهاج خير أمة أخرجت للناس ، وهو سبحانه يمتن عليها ، وله الفضل والمنة بكل حال ، فيقول : « كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله »(١).

ويقول : لقد أنزلنا إليكم كتاباً فيه ذكركم أفلا تعقلون »(٢) .

ويقول : « وإنه لذكر لك ولقومك وسوف تسألون »(٣) .

وأشهد أن سيدنا محمداً رسول الله ، ذكر بالقرآن وحذر ، وبشر به — كما أمره مولاه — وأنذر ، وأخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربه إلى صراط الحميد ، وترك فينا — مع ما تكلم به القرآن عن القرآن — كلماته النبوية الهادية ، وأعماله وتصرفاته التى بقيت تفصيلا وبياناً لكلمات الله ، فلقد أوتى — صلوات الله وسلامه عليه — القرآن ومثله معه .

٢ — حبل الله :

واستوجب القرآن الكريم ممن يعقلون أن يعتصموا بحبله ، وأن يرتبطوا بقوله ، وأن ينطلقوا بهداياته فى شتى اتجاهات الحياة ، فالقرآن الكريم كتاب الحياة كلها ، علماً وحكماً وقيادة وريادة ، وتربية وإعداداً ليكون المسلمون أبداً « خير أمة أخرجت للناس » وقصصه وحديثه عمن مضوا عبر وعظات ومثلات تحفز إلى العمل الصالح ، والسلوك الأهدى فى عاجل وآجل .

« إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجراً كبيراً * وأن الذين لا يؤمنون بالآخرة أعتدنا لهم عذاباً أليماً »(٤) .

كذلك عرف المسلمون كتاب الله عبر القرون .. وكانوا من المجادة والسيادة والتقدم على من سواهم ، بقدر التزامهم للقرآن علماً وعملا ،

(١) سورة آل عمران ، الآية ١١٠
(٢) سورة الأنبياء ، الآية ١٠
(٣) سورة الزخرف ، الآية ٤٤
(٤) سورة الإسراء ، الآيتان ٩ و ١٠

وأخذه فهماً وتطبيقاً ، يغدون معه ويروحون ، ويمسون ويصبحون ، وهم بأمره يعملون ، لا يستقدمون عنه طرفة عين ولا يستأخرون ، على مستوى الانتباه والاهتمام بما روى عبد الله بن مسعود رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (إن هذا القرآن مأدبة الله ، فتعلموا من مأدبته ما استطعتم) .

وإذا جاز لأحد فى أى موقع أن يعيش لبطنه وغرائزه الدنيا ، وأن يسلم زمامه لأهوائه ، وأن يرهف لغير الله كل إصغائه ، فما ينبغى لأمة القرآن أن ترضى به بدلا ، أو تبغى عنه حولا ..

وما يستوى وحى من الله منزل   وقافيـة فى العالمين شرود ...

إن القرآن يسلمها .. وهى بهذه المثابة من التزامه — زمام الوجود السعيد والعيش الرغيد ، كالذى كان لأوائلها بالقرآن ، حتى شغلتهم الشواغل ، وبدلوا غير الذى آثرهم الله به فى كتابه ، وغفلوا عن مثل قوله تعالى :

« يأيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدى الله ورسوله واتقوا الله إن الله سميع عليم »(١).

وقوله سبحانه : « فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى * ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكاً ونحشره يوم القيامة أعمى * قال : رب لم حشرتنى أعمى وقد كنت بصيراً * قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى * وكذلك نجزى من أسرف ولم يؤمن بآيات ربه ولعذاب الآخرة أشد وأبقى »(٢).

إن القرآن أجلّ أنعم الله على عباده ، وأحسبنا ما نزال نذكر قوله تعالى : « ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا »(٣) .

وماذا وراء ما يورث الكريم الرحيم المصطفين الأخيار من خلقه ؟!

---

(١) سورة الحجرات ، الآية ١   (٢) سورة طه ، الآيات ١٢٣ — ١٢٧
(٣) سورة فاطر ، الآية ٢٢

وسيبقى أكثر المؤمنين سعادة ، من شغل بالقرآن نفسه ، وأخلص له وعيه وحسه ، ائتماراً بأوامره ، وكفاً عن زواجره ، وتصديقاً لخبره ، واعتباراً بعظاته وعبره ، وتقديماً لذلك ، ولما لم تذكر — إلى حين — من مقاصده على ما ســـواه من كلام البشر ، وأحاديث من علم وجهل ، واهتدى وضَلَّ ، وعرف القليل ، وخفى عليه من مرادات الله تعـــالى أضعاف أضعاف ما عرف .

إن الذين يلزمون القرآن أنفسهم ، هم أهل الله وخاصته من عباده .. أخرج ابن ماجه فى سننه ، وأبو يعلى فى مسنده أن رســـول الله صلى الله عليه وسلم قال : (إن لله أهلين من الناس . قالوا : يا رسول الله ، من هم ؟ قال : هم أهل القرآن ، أهل الله وخاصته) .

وأخرج الترمذى بسنده عن أبى سعيد رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسـلم : يقول الرب تبارك وتعالى : (من شغله القرآن وذكرى عن مسألتى أعطيته أفضل ما أعطى السائلين) .

وقد رووا أن عثمان بن عفان — ذا النورين رضى الله عنـــه — كان يديم النظر فى المصحف بعد أن جمع الله به المسلمين على المصحف الإمام ، فلما سألوه فى ذلك قال : (إنه كتاب سـيدى وحق على العبد إذا جاءه خطاب من سيده أن يطيل تأمله) .

ألا ليتنا نتدبر القرآن حتى نهتدى بهداه ، ونكون به من خاصة أهل الله ، فهو كتاب الله الذى يهـدى للتى هى أقوم ، ويدعو إلى أحسن الأحوال بالإيمان وصالح الأعمال .. قال الإمام مالك : (إن استطعت أن تجعـــل القرآن إماماً فافعل فهو الإمام الذى يهدى إلى الحنيفية) .

ولعل الفصول المتتابعة تكشف لك مع جلال القرآن وكماله ووفائه بما أراد الله تعالى منه ماحرصت أشد الحرص على إبرازه من عنصر الهداية فيه .

والله المستعان ؟ معوض عوض إبراهيم

الفصل الأول

- بين أخذ القرآن والغفلة عنه .
- لم نزل القرآن منجماً ؟
- إعداد ربانى لنزول الوحى .
- سيدة نساء العالمين .
- النبى وفتور الوحى .

بين أخذ القرآن والغفلة عنه

القرآن الكريم « هدى للمتقين » . « وإنه لتنزيل رب العالمين » . وهو « أمر الله الذى أنزله إليكم » . « وأنزلنا إليكم نوراً مبيناً » . « إن هــذا القرآن يهــدى للتى هى أقوم » . « قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين » . « وإنه لكتاب عزيز لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد » . « وأن هذا صراطى مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيــله » . « ونزلنــا عليك الكتــاب تبياناً لكل شيء وهــدى ورحمة وبشرى للمسلمين » .

القرآن الكريم منهاج خلقى كامل :

ورعايتنا فى هذه الأحاديث لهذا الجانب الذى يتعلق بالسلوك ، محاولة لوضع المنهج الإسلامى الراشد أمام فريقين من الناس ، هم : المؤمنين وغير المؤمنين ، الأبرار والفجار على سواء ، ليزداد الذين آمنوا إيماناً ، وليعلم الذين فى قلوبهم على الإسلام كحز المدى ، فهم يحقدون عليه ، ويضيقون ذرعاً به ، ويقولون فيه بالباطل.. أن حقيقتهم لا تخفى ، وأن القرآن الكريم صمام أمن لعقيدة التوحيد وجلاء العبادات والتكاليف ، وهو منهاج خلقى كامل ، هو فى دين الله إحدى خصائصه وبعض سماته الفارقة المميزة .

« قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء والذين لا يؤمنون فى آذانهم وقر وهو عليهم عمى ، أولئك ينادون من مكان بعيد »[1] .

وإذا وضع اليوم أقوام أصابعهم فى آذانهم وقالوا مقالة أوائلهم : « قلوبنا فى أكنة مما تدعونا إليه وفى آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب»[2] .

(١) سورة فصلت ، الآية ٤٤ (٢) سورة فصلت ، الآية ٥

فإننا نكشف الطريق أمام الذين يريدون أن يكونوا مع الله على صراط مستقيم ، والذين يبتغون لأنفسهم الفلاح والهدى باتباع رسول الله صلوات الله وسلامه عليه وبالاقتداء به جهد استطاعتهم ، فالله تعالى يقول : « وإن تطيعوه تهتدوا »(١) .

ويقول : « قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم * قل أطيعوا الله والرسول فإن تولوا فإن الله لا يحب الكافرين »(٢) .

كان خلقه القرآن :

إن القرآن الكريم يجلو أخلاق رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلقد سئلت أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها عن أخلاق رسول الله ، فقالت : (كان خلقه القرآن) . أجل ، فلقد تأدب صلى الله عليه وسلم بآدابه ، وتحلى بأوامره ، وكف عن زواجره ، كقوله تعالى: « خذ العفو وأمر بالمعروف وأعرض عن الجاهلين »(٣) .

وقوله : « إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى ، يعظكم لعلكم تذكرون »(٤) .

وقوله : « واصبر على ما أصابك »(٥) .

وقوله : « فاعف عنهم واصفح »(٦) .

وقوله : فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم فى الأمر ، فإذا عزمت فتوكل على الله ، إن الله يحب المتوكلين »(٧) .

---

(١) سورة النور ، الآية ٥٤
(٢) سورة آل عمران ، الآيتان ٣١ و ٣٢
(٣) سورة الأعراف ، الآية ١٩٩
(٤) سورة النحل ، الآية ٩٠
(٥) سورة لقمان ، الآية ١٧
(٦) سورة المائدة ، الآية ١٣
(٧) سورة آل عمران ، الآية ١٥٩

وقوله : « ادفع بالتى هى أحسن »(١) .

وقوله : « والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين »(٢).

فأوصاف خلقه الكريم صلوات الله عليه لا تتناهى ، كما أن معانى القرآن لا تتناهى ، ومقاصده الرفيعة مستوعبة لكمال الدين والدنيا .

أصحاب الرسول عليه السلام يلتزمون القرآن :

لقد كان أصحاب الرسول أحرص ما يكونون على أخذ القرآن الكريم، علماً وعملا ، وفهماً وتطبيقاً ، قال أبو عبد الرحمن السلمى : (حدثنا الذين كانوا يقرئوننا أنهم كانوا يستقرئون من النبى صلى الله عليه وسلم، إذا تعلموا عشر آيات لم يجاوزوها حتى يعملوا بما فيها من العمل ، فعلموا القرآن والعمل جميعاً) . وكانوا يعرضون أنفسهم فى كل موقف وقبل كل تصرف ، على كتاب الله تعالى ، فما أمر به مضوا معه ، وما نهى عنه تحرزوا ولم يقربوه ، وبقى ذلك سلوكاً متبعاً بعد عصر النبوة ، ونهجاً راشداً فى عصور النور بعده ، حتى قال صاحب الاستيعاب بسنده عن الحسن قال : (كتب زياد إلى الحكم بن عمرو الغفارى وهو على خراسان:

إن أمير المؤمنين كتب إلى أن يصطفى له الصفراء والبيضاء ، فلا تقسم بين الناس ذهباً ولا فضة) . فكتب إليه الحكم : (بلغنى أن أمير المؤمنين كتب أن يصطفى له الصفراء والبيضاء، وإنى وجدت كتاب الله قبل كتاب أمير المؤمنين ، وإنه — والله — لو أن السموات والأرض كانتا رتقاً على عبد ثم اتقى الله ، إلا جعل الله له مخرجاً ، والسلام) .

ثم قال للناس : أغدوا على مالكم ، فغدوا ، فقسمه بينهم وقال : (اللهم إن كان لى عندك خير فاقبضنى إليك) واستجاب الله دعاءه ، فلبى نداء ربه راضياً مرضياً .

---

(١) سورة فصلت ، الآية ٣٤ (٢) سورة آل عمران ، الآية ١٣٤

ولقد قرأ قتادة رضى الله عنه قول الله تعالى : « الله نزّل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً مثانى تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله »(١) .

فقال : (هذا نعت أولياء الله ، نعتهم بأنهم تقشعر جلودهم ، وتلين قلوبهم إلى ذكر الله ، ولم ينعتهم بذهاب عقولهم والغشية عليهم ، فذلك من عمل الشيطان بأهل البدع) .

حين كانوا يقرأون القرآن :

روى الإمام الشوكانى بسنده عن عروة بن الزبير بن العوام ، قال : قلت لجدتى أسماء : كيف كان يصنع أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم إذا قرأوا القرآن ؟ قالت : كانوا كما نعتهم الله ، تدمع أعينهم ، وتقشعر جلودهم ، قال : فإن ناساً ههنا إذا سمعوا ذلك تأخذهم عليه غشية ، قالت : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم .

ولقد سمع عمر بن الخطاب رضوان الله عليه قارئاً يقرأ قوله تعالى : « والطور * وكتاب مسطور * فى رق منشور * والبيت المعمور * والسقف المرفوع * والبحر المسجور * إن عذاب ربك لواقع * ماله من دافع »(٢) .

فارتكن إلى جدار كان قريباً منه ، ثم عاد إلى بيته ، وظل الناس يعودونه شهراً مما ألم به ومما فعلته فى نفسه تلك الآيات .

ولقد سمع أحد المشركين قوله تعالى : « إن عذاب ربك لواقع * ماله من دافع »(٣) ، وكان النبى صلى الله عليه وسلم يقرأها فى صلاة المغرب ، فهزت لبّه ، وبلغت قلبه ، ثم لم تلبث أن هداه الله بها إلى الإسلام . وصدق الله العظيم : « لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية

---

(١) سورة الزمر ، الآية ٢٣ (٢) سورة الطور ، الآيات ١ — ٨

(٣) سورة الطور ، الآيتان ٧ و ٨

الله ، وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون »(١) .

وياويل من لا تخف قلوبهم لما تخشع له الجبال وتتصدع ، وهى لم تمنح من الفهم ما منحوا .

المخلوقات الأخــرى والذكر :

قال الإمام ابن كثير فى تفسيره هــذه الآية : (وقد ثبت فى المتواتر من ذلك الحديث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما عمل له المنبر ، وقد كان يوم الخطبة يقف إلى جانب جذع من جذوع المسجد ، فلما وضع المنبر أول ما وضع وجاء النبى ليخطب فجاوز الجذع إلى نحو المنبر ، فعند ذلك حنّ الجذع ، وجعل يئن أنين الصبى ، لما كان يسمع من الذكر والوحى عنده .

وفى بعض روايات هذا الحديث ، قال الحسن البصرى بعد إيراده : (فأنتم أحق أن تشتاقوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم من الجذع) .
والله تعالى يقول : « ولو أن قرآناً سيرت به الجبال أو قطعت به الأرض أو كلم به الموتى »(٢) .

أى لكان هذا القرآن .

ويقول : « وإن من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار ، وإن منها لما يشقق فيخرج منه الماء ، وإن منها لما يهبط من خشية الله »(٣) .

وقد أخرج عبد بن حميد بسنده عن ابن عباس قال : (إن الحجر ليقع على الأرض ، ولو اجتمع عليه فئام(٤) من النـاس ما استطاعوه ، وإنه ليهبط من خشية الله .. هبوطاً يعنى التواضع الكائن فيــه ، انقياداً لله عز وجل ، وأداءً لوظيفته التى خلقه الله لها ! ومن أصدق من الله حديثاً :

(١) سورة الحشر ، الآية ٢١
(٢) سورة الرعــد ، الآية ٣١
(٣) سورة البقرة ، الآية ٧٤
(٤) فئام : جماعات .

« وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم ، إنه كان حليماً غفوراً »[١] .

الخشوع لذكر الله :

وكان شداد بن أوس رضى الله عنه يروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله : (إن أول ما يرفع من الناس الخشوع) ، ناظراً إلى قوله تعالى : « ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق ، ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم وكثير منهم فاسقون »[٢] .

فإن ربنا سبحانه يهيب بعباده المؤمنين أن يسارعوا إلى تأمل القرآن ، وتمثل هداياته ، والانتفاع بعظاته ، والخشية من وعيده ، والأمل فى عدالته.

وعن ابن عباس رضى الله عنهما فى تفسير هذه الآية : (إن الله استبطأ قلوب المؤمنين فعاتبهم على رأس ثلاث عشرة من نزول القرآن) . فقال : « ألم يأن للذين آمنوا .. » [٣] .

وفى رواية ابن مسعود رضى الله عنه : (ما كان بين إسلامنا وبين أن عاتبنا الله بقوله : « ألم يأن للذين آمنوا » الآية ، إلا أربع سنين . وروى أن الصحابة لما نزلت هذه الآية قال بعض الصحابة لبعض : أى شيء أحدثنا ؟ أى شيء صنعنا ؟ .

كتاب الله بين أيدينا :

هذا كتاب الله بين أيدينا محفوظ بحفظه ، وتقوم حجته علينا ، فخذوا منه مع عقيدتكم وتكاليف الله لكم ، منهاج السلوك ، ومبادئ الأخلاق التى هى ثمرة العقيدة ولباب العبادة ، وأعظم ما يدخل الله به المؤمنين دار كرامته :

(١) سورة الإسراء ، الآية ٤٤ (٢) سورة الحديد ، الآية ١٦
(٣) سورة الحديد ، الآية ١٦

لم نزل القرآن منجما

القرآن الكريم كتاب الله تعالى وهدية الحق للخلق ، نزل به أمين السماء على أمين الأرض : « نزل به الروح الأمين * على قلبك لتكون من المنذرين * بلسان عربي مبين »(١) .

وكان نزوله فى نيف وعشرين سنة ، مكياً ومدنياً ، حسب الوقائع والأحداث ، لحكم وأسرار يقول فيها رب العالمين : « وقرآناً فرقناه لتقرأه على الناس على مكث ونزلناه تنزيلا »(٢) .

وقال : « وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة كذلك لنثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلا * ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيراً »(٣) .

ولقد نزلت التوراة ، ونزل الإنجيل ، وعرفت البشرية فى عصورها المختلفة صحف إبراهيم والزبور الذى آتاه الله نبيه داود ، وكان لها من البقاء ما شاء الله ، ثم انقضت ومضت ، وبقى القرآن يحكى بإنزاله مفرقاً مشيئة الله فى خلوده وبقائه ، بمقتضيات ذلك وموجباته فى القرآن نفسه، وإجابته على ما وجه إلى النبى صلى الله عليه وسلم من أسئلة المؤمنين والكافرين ، ومن أحوال الدعوة ، وهى أمور ترتبط بالآيات وتكون عوناً على حفظها بارتباطها بالأحداث، فالربط كما يقول علماء النفس من دواعى الحفظ ، ووسائله الأصيلة ، وذلك مأنوس فى الناس سلفاً وخلفاً .

---

(١) سورة الشعراء ، الآيات ١٩٣ – ١٩٥

(٢) سورة الإسراء ، الآية ١٠٦ (٣) سورة الفرقان ، الآيتان ٣٢ و ٣٣

إن آيتى الإسراء والفرقان تبرزان بجلاء حكمة الله فى إنزال القرآن منجماً ، ورحم الله الشيخ محمد أبا زهرة فقد أورد قوله تعالى : « وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة كذلك لنثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلا * ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيراً »[1] .

ثم قال : ترى أن النص القرآنى قد نقل اعتراض المشركين ، ورده سبحانه وتعالى عليه ، وقد تضمن الرد ثلاثة أمور تومئ إلى السبب فى نزوله منجماً :

أولها : تثبيت فؤاد النبى صلى الله عليه وسلم بموالاة الوحى بالقرآن ، فإن موالاته فيها أنس للنبى صلى الله عليه وسلم ، وتثبيت لعزيمته ، وتأييد مستمر له ، ليقوم بحق الدعوة والجهد فى سبيلها ، وإذا كان المرء يأنس بوليه إذا والى الاتصال به ، فكيف لا يستأنس رسول الله تعالى بلقاء الروح الأمين الذى يجيؤه بكلام رب العالمين فى موالاة مستمرة .

وثانيها : أن تثبيت الفؤاد يكون بحفظ ما ينزل عليه جزءًا جزءًا .. وذلك أن هذا القرآن أنزل ليحفظ فى الأجيال كلها جيلا بعد جيل ، وما يحفظ فى الصدور لا يعتريه المحو ولا التحريف والتصحيف ، لأن الله تعالى كتب للقرآن أن يحفظ ، كان يحفظ جزءًا جزءًا ، وكان يحفظ مجزأً ، ليسهل ذلك الحفظ ، وكان النبى صلى الله عليه وسلم حريصاً على أن يحفظه بعد نزوله ، فكان يردد ما يتلوه عليه جبريل ، ويتعجل حفظه ، وقد قال الله تعالى لنبيه فى ذلك : « لا تحرك به لسانك لتعجل به * إن علينا جمعه وقرآنه * فإذا قرأناه فاتبع قرآنه * ثم إن علينا بيانه »[2] .

وترى من هذا النص حرص النبى صلى الله عليه وسلم على أن يحفظ ما يوحى إليه ، فيحرك به لسانه ، مستعجلا الحفظ ، فينبهه الله عز وجل

(١) سورة الفرقان ، الآيتان ٣٢ و ٣٣ (٢) سورة القيامة ، الآيات ١٦ — ١٩

إلى أنه يتولى جمعه وإقراءه له ، وأنه مبينه وحافظه كما قال تعالى : « إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون »[١] .

الأمر الثالث : هو ترتيل القرآن بتعليم تلاوته، وإن هذا النص يستفاد منه أن تلاوة القرآن وطريق ترتيله هى تعليم الله تعالى، إذ أنه سبحانه نسب الترتيل إليه ، تعالت قدرته وعظم بيانه ، فنحن بقراءتنا إن أحكمناه ، إنما نتبع ما علم الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم من ترتيل، وما أمره به فى قوله تعالى : « ورتل القرآن ترتيلا »[٢] .

وما كان تعليم هذا الترتيل المحكم المنزل من عند الله تعالى ، ليتواتر أبداً إذا لم ينزل القرآن منجماً ، فلو نزل جملة واحدة ما تمكن النبى صلى الله عليه وسلم من تعلُّم الترتيل ، ولو علمه الله تعالى بغير تنجيمه ما كان فى الإمكان أن يعلمه قومه وهم حملته إلى الأجيال من بعده . وأشار الشيخ رحمه الله إلى أن العرب والوحى ينزل، كانوا أمة أمية لا تكتب ولا يقرأ أكثرها ، ولو نزل القرآن جملة واحدة لشقت كتابته وتعذر تسجيله ، وفاتت الناس رحمة الله به ، ولم يكن هدى ورحمة وبشرى للمسلمين ، وكان من فوائد تنجيمه كذلك نزوله لمناسبات وأحداث ، وهى سياق وتفسير لكلمات الله ، وإبراز للأحكام الشرعية التى يبينها المبين الأعظم صلى الله عليه وسلم ، كيف لا وقد قال رب العالمين : « وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم ولعلهم يتفكرون »[٣] .

إن تتابع نزول القرآن على أقساط ونجوم ، أعان على منة الله بالقرآن حفظاً وبياناً لمعانيه ، وأخذاً لما قرن الله به من هدى وصلاح وتوجيه هى

---

(١) سورة الحجر ، الآية ٩
(٢) سورة المزمل ، الآية ٤
(٣) سورة النحل ، الآية ٤٤

من أجل مرادات الله تعالى بكلماته التى حفظها لذلك بنفسه وبمن شاء من أولى البصائر والنهى ..

وكان نزول القرآن حالا بعد حال ، وفى مجال وراء مجال ، ضرباً جديداً من ضروب إعجاز القرآن، وتحدى الرسول به أُولى اللسن والبيان، فيبدو عجزهم فى كل مرة عن الإتيان بمثل كتاب الله أو بعشر سور من مثله مفتريات أو بسورة واحدة ، والسورة تصدق على أقصر سور قصار المفصّل مثل الإخلاص : « قل هو الله أحد * الله الصمد * لم يلد ولم يولد * ولم يكن له كفواً أحد » .

أو الكوثر : « إنا أعطيناك الكوثر * فصل لربك وانحر * إن شانئك هو الأبتر » .

والسورة الأولى فيها حقيقة الإخلاص ، إخلاص الأسماء والصفات .

والسورة الثانية مخلصة لرسول الله ببيان ما آثر الله به مصطفاه من منته وعطاياه فى الحياة وفيما وراء الحياة، وفيما أوجب عليه من طاعة تتمثل فى الصلاة عماد الدين ، وفى الصدقات التى هى ثمرة حقة للعبادة الصادقة، وفيما رد الله عن رسوله من باطل أُولى الباطل الذين غالوا فى الشماتة برسول الله وهو يحتسب عند الله ذكوره ، ويكون بذلك قدوة لمن امتحن فى أولاده فى عصره وعبر القرون من بعده ، وهم يرون نبيهم وتبلغهم أنباء صبره الجميل ، وقوله يوم مات إبراهيم ابنه من مارية القبطية وهو يرى جبل أحد : (يا أحد إنى لأحمل من الهم ما لا تحمل) .

وقوله : (إن العين لتدمع ، وإن القلب ليخشع ، ولكننا لا نقول ما يغضب الله تعالى ، إنا لفراقك يا إبراهيم لمحزونون ، وإنا لله وإنا إليه راجعون) .

كان خلقه القرآن .. كما قالت أم المؤمنين عائشة بحق، وهو يضرب المثل فى الصبر كما أمره الله ، على ما قضى سبحانه وقدر ، وهو الرءوف الرحيم .

ويبقى جانب من جوانب الدين الخاتم ، يميط اللثام عنه نزول القرآن — وعاء الإسلام — أقساطاً ونجوماً ، وهو تدرجه فى الأحكام والتكاليف رحمة من الله بالمكلفين ، واعتباراً لما جبلهم عليه من قوى واستعدادات : « ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير »[1] .

يقول أستاذنا الشيخ محمد عبد العظيم الزرقانى — رحمه الله — فى كتابه (مناهل العرفان فى علوم الدين ، ج ١) فى واحدة من حكم الله فى تنجيم نزول القرآن : (التدرج فى تربية هذه الأمة الناشئة علماً وعملا ، ويورد فى هذه الكلمة أموراً :

أولها : تيسير حفظ القرآن على الأمة العربية ، وهى كما علمت كانت أمة أمية ، وأدوات الكتابة لم تكن ميسورة لدى الكاتبين منها على ندرتهم ، واشتغالها بشئون معاشها ، ودفاعها عن الدين الجديد ، فلو نزل القرآن جملة واحدة لعجزوا عن حفظه ، فكان نزوله منجماً من حكم الله ، لتيسير حفظهم له ، وتهيئهم لاستظهاره ..

ثانيها : تيسير فهمهم لآياته ، وقد جمع الله لهم بذلك العلم والعمل معاً ، كما قال أبو عبد الرحمن السُّلميُّ .

ثالثها : التمهيد لكمال تخليهم عن عقائدهم الباطلة وعاداتهم المسترذلة ، وذلك بأن يراضوا على ذلك التخلى شيئاً فشيئاً بسبب نزول القرآن عليهم شيئاً فشيئاً ، فكلما نجح الإسلام معهم فى هدم باطل انتقل بهم إلى هدم

---

(١) سورة الملك ، الآية ١٤

آخر ، بادئاً بالأهم ثم المهم ، حتى طهرهم آخر الأمر من أرجاسهم دون أن يشعروا بعنت أو حرج .. وكم هى سياسة رشيدة ، جدوى مثلها فى تربية الأمم وصيانة المجتمعات نافعة مفيدة ..

وذكر الشيخ الزرقانى — رحمه الله — الأمر الرابع ، وهو التأهب للتحلية بمكارم الأخلاق بعد التخلية من الشرك وسفساف الأمور ، بتعاهدهم مرة بعد مرة بلفت الأبصار والبصائر فى الآفاق وفى أنفسهم ، وزجرهم كرة بعد كرة عن أنانياتهم وعبادتهم لذواتهم ، واتخاذهم عباد الله خولاً وعبيداً ، وهم فى حقيقة الأمر لآدم جميعاً أكرمهم عند الله أتقاهم ..

وذكر الشيخ أمراً خامساً ، وهو ترطيب النفس المؤمنة بقصص الأنبياء وأممهم ، ففى ذلك للنبى وأمته عبر وعظات « ليهلك من هلك عن بينة ويحيا من حىّ عن بينة »[١] .

« لقد كان فى قصصهم عبرة لأولى الألباب ما كان حديثاً يفترى ولكن تصديق الذى بين يديه وتفصيل كل شىء وهدى ورحمة لقوم يؤمنون »[٢] .

---

(١) سورة الأنفال ، الآية ٤٢ (٢) سورة يوسف ، الآية ١١١

اعداد ربانى لنزول الوحى

إن نزول القرآن منجماً على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، منذ : « اقرأ باسم ربك الذى خلق »[1] .

وهى أولى آياته نزولا بإجماع ، وإلى أن نزل قوله تعالى : « واتقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله ثم توفى كل نفس ماكسبت وهم لايظلمون »[2].

وهى آخر ما نزل من كتاب الله بإجماع ، وشاهد أنه كتاب الدين الخاتم الذى تحفظ آياته وتلحظ دلالاته ، ويكون بأسره قبالة أبصار المسلمين وبصائرهم ليحكم دنياهم ، وتقوم على قواعده حياتهم ، فلا يكون القرآن مجرد كلام ، ولا يكون الإسلام بعض أحكام ، يؤخذ منها ويترك ، ويؤثر ما يوافق الميول ويناسب العصر . أو كما قال بعض الغافلين : إنه كتاب ثقافة وبلاغة ولا شىء وراء ذلك ، ومن وراء الساحة من غير المسلمين من هدوا إلى نظر كمالاته وجلاله ، وإن لم يقيموا اعتقادهم على منواله ، كما فعل ذلك أقوام أخذتهم حقائقه وجبريل ينزل به على رسول الله صلى الله عليه وسلم ! !

منذ جاء جبريل النبى صلى الله عليه وسلم فى غار حراء بـ « اقرأ باسم ربك » على نحو ما فصلته الصحاح فى أحاديثه صلوات الله عليه ، صار الرحمة المهداة والنعمة المسداة ورسول الله ومصطفاه إلى قومه أول أمره ثم إلى البشرية بأسرها « وما أرسلناك إلارحمة للعالمين »[3] ولانبى بعده صلوات الله عليه ، وبه تمت كلمات الله ، حيث لم يفارق الحياة ، ولم يؤثر الرفيق

---

(١) سورة العلق ، الآيات ١ — ٥ (٢) سورة البقرة ، الآية ١٨١

(٣) سورة الأنبياء ، الآية ١٠٧

الأعلى حتى امتن الله بالدين وكمال الرسـالة فى آخر ما نزل من آيات الأحكام : « اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام ديناً »(١) .

أخرج الإمام البخارى بسنده عن ابن شهاب عن عروة بن الزبير عن عائشة أم المؤمنين أنها قالت : (أول ما بدئ به رسول الله صلى الله عليه وسلم من الوحى الرؤيا الصالحة فى النوم ، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح ، ثم حبب إليه الخلاء ، فكان يخلو بغار حراء فيتحنث فيه ، وهو التعبد ، الليالى ذوات العدد قبل أن ينزع إلى أهله ، ويتزود لذلك ، ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها ، حتى جاءه الحق وهو فى غار حراء فجاءه الملك فقال : اقرأ . قال : ما أنا بقارئ . قال : فأخذنى فغطنى حتى بلغ منى الجهد ، ثم أرسلنى فقال : اقرأ . فقلت ما أنا بقارئ . فأخذنى فغطنى الثانية حتى بلغ منى الجهد ، ثم أرسلنى فقال : اقرأ . فقلت : ما أنا بقارئ . فأخذنى فغطنى الثالثة ، ثم أرسلنى فقال : « اقرأ باسم ربك الذى خلق * خلق الإنسان من علق * اقرأ وربك الأكرم » .

فرجع بها رسول الله صلى الله عليه وسلم يرجف فؤاده فدخل على خديجة بنت خويلد رضى الله عنها ، فقال : (زملونى زملونى) فزملوه حتى ذهب عنه الروع ، فقال لخديجة ، وأخبرها الخبر : (لقد خشيت على نفسى) . فقالت خديجة : كلا والله ما يخزيك الله أبداً ، إنك لتصل الرحم ، وتحمل الكل ، وتكسب المعدوم ، وتقرى الضيف ، وتعين على نوائب الحق . فانطلقت به خديجة حتى أتت به ورقة بن نوفل بن أسد بن العزى ابن عم خديجة ، وكان امرأ تنصَّر فى الجاهلية ، وكان يكتب الكتاب العبرانى ، فيكتب من الإنجيـل بالعبرانية ما شـاء الله أن يكتب ، وكان

---

(١) سورة المـائدة ، الآية ٣

شيخاً كبيراً قد عمى ، فقالت له خديجة : ياابن عم اسمع من ابن أخيك ، فقال له ورقة : يا ابن أخى ، ماذا ترى ؟! فأخبره رسول الله صلى الله عليه وسلم خبر ما رآى . فقال له ورقة : هـذا الناموس الذى أنزل الله على موسى ، ياليتنى فيها جزعاً ، ليتنى أكون حياً إذ يخرجك قومك ! ! فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أومخرجىّ هم ؟ قال : نعم ، لم يأت رجل قط بمثل ما جئت به إلا عودى ، وإن يدركنى يومك أنصرك نصراً مؤزراً . ثم لم يلبث ورقة أن توفى وفتر الوحى .

لقد استأنست بهـذه الكلمات الجامعـة لدور المعانى ، وغرر الفضائل والكمالات لأبرز اصطفاء النبى صلى الله عليه وسلم منذ « اقرأ باسم ربك » ، ودلالة الحديث على ذلك لا تخفى ، ومن جوانب الحـديث الملهمة المعلمة ما يتصل بقول الله تعالى : « وإذا رأيت الذين يخوضون فى آياتنا فأعرض عنهم حتى يخوضوا فى حديث غيره .. »[1] .

ألم تروا رسول الله كيف اعتزل مجتمع مكة وهو يزخر يومئذ بالكفر والشر ، ويموج بعضه فى بعض فى بحر من الوثنية وضلال الجاهلية لا تنتقى أطرافه ، إذ كان يغدو إلى غار حراء يأنس بربه تباركت آلاؤه ، ويعيش الليالى ذوات العدد يستلهم القمر الطالع ، والنجم الساطع ، والليل إذا عسعس والصبح إذا تنفس ، وآذن طلوع الشمس بيوم جديد وضحى وادع رشيد ، ويتابع النبى صلى الله عليه وسلم إرسال طرفه فى الأفق البعيد فى الأرض ذات الطول والعرض ، وإعمال عقله فى القريب والبعيد من الكائنات علواً وسفلا ، فيطل بذلك على جلال الله وكماله وتفرده دون معين فى تدبير أمر السموات والأرض وما فيهن ، على النحو الذى يستوجب به دون سـواه الطاعة والإذعان لأمره سبحانه .

وأخذ هذا التصرف النبوى البصير فى اعتزال مجامع الشر حين لا نستطيع

(١) سورة الأنعـام ، الآية ٦٨

له دفعاً ولا تحويلا، أسلوب فى التغيير نافع ، ورحم الله الإمام مالك بن أنس فقد قال : (إذا لم تستطع أن تزيل الشر فزل عنه ..) .

ومن لطائف أسئلة الإمام العينى وأجوبته فى شرح الحديث قوله : لِمَ حبب إلى النبى صلى الله عليه وسلم الخلوة ؟ قال : وأجيب بأن معها فراغ القلب ، وهى معينة على التذكر ، والبشر لاينقطع عن طبعه إلا بالرياضة البليغة ، فحبب إليه الخلوة لينقطع عن مخالطة البشر فينسى المألوفات من عادته ، فيجد الوحى منه مراداً سهلا لا حزناً ، ولمثل هذا المعنى كانت مطالبة الملك له بالقراءة .

وذكر الخطابى مثل ذلك وزاد عليه قوله : (والخلوة من جملة المقدمات التى أرهصت لنبوّة النبى صلى الله عليه وسلم وجعلت مبادئ لظهورها) .

وأورد الإمام العينى فى ذلك معنى آخر وهو أن ذلك ربما كان اعتباراً وفكرة ، كاعتبار إبراهيم عليه الصلاة والسلام لمناجاة ربه والضراعة إليه ليريه السبيل إلى عبادته على صحة إرادته ، والإمام يشير إلى آيات :

« وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السموات والأرض وليكون من الموقنين * فلما جنّ عليه الليل رأى كوكباً قال هذا ربى ، فلما أفل قال لا أحب الآفلين * فلما رأى القمر بازغاً قال هـذا ربى ، فلما أفل قال لئن لم يهدنى ربى لأكونن من القوم الضالين * فلما رأى الشمس بازغة قال هـذا ربى هذا أكبر ، فلما أفلت قال يا قوم إنى برئ مما تشركون * إنى وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين »[1] .

وليس أعجب من تزويد خديجة رضوان الله عليها لزوجها وإمدادها إياه مرة بعد مرة ليخلص إلى ما أحب ورغب من الخلوة والأنس بغيرها ، وهى تستيقن أن هذا الغير هو الله وحده ، والفزع إليه والإقبال عليه عصمة وجنة من كل ما يخاف ويحذر ، وبلاغ لكل ما يراد ويرجى ..

---

(١) سورة الأنعام ، الآيات ٧٥ — ٧٩

خديجة أم المؤمنين وسيدة نساء العالمين :

ليس أعجب من تزويدها رسول الله صلى الله عليه وسلم بما لابد منه للمرء ، يعيش فى غير داره ، ويقضى الليالى ذوات العدد بعيداً عن أهله وخاصته ، إلا أن تسارع فتزمل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكأنها تضنى من اهتمامها بالعائد الكريم يرجف فؤاده ، وتضطرب بوادره ، ما يجعل الزمان والمكان أعون ما يكونان على استغراق الرسول فى نومه ، وأخذ أكبر نصيب من الراحة والاستجمام .. وإلا أن تبادر انتهاء رسول الله من قوله لها : (لقد خشيت على نفسى) بقولها : (كلا والله ما يخزيك الله أبداً) ، وكلماتها تلك تؤلف سفراً جليلا من فضائل رسول الله التى يقول فيها ربه ومولاه : « وإنك لعلى خلق عظيم »[1] .

ومن جميل معرفتها بهذا القدر من علو نفسه وشرف حسه ، واتساع جوانب مروءته وإنسانيته ، صلوات الله عليه ..

إن أم المؤمنين خليقة بإعزاز الله لها ، فقد سئل رسول صلى الله عليه وسلم : (هل بشرت خديجة ؟ ! فقال : نعم بشرها جبريل من ربها ببيت فى الجنة من قصب ، لا صخب فيه ولا نصب) .

والقصب هو اللؤلؤ . قال السهيلى ، والخبر يرويه ابن قيم الجوزية رضى الله عنه فى كتاب (الفوائد) ، قال السهيلى : (وإنما بشرت ببيت من قصب لأنها حازت قصب السبق بسبقها إلى الإسلام ، فهى أول الناس رجالا ونساء إسلاماً ، وإنما كان لا صخب فيه ولا نصب لأنها لم ترفع صوتها على رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا آذته ولا خالفت له أمراً) .

والعلامة الطبرى يقول فى ج ٣ ص ١٧٥ من تاريخه : (سعت أم حكيم رضى الله عنها إلى رسول صلى الله عليه وسلم ذات مساء بعد أن انتهت أيام الحداد على خديجة رضى الله عنها ، فتلطفت برسول الله صلى الله عليه وسلم

---

(١) سورة القلم ، الآية ٤

وهى تقول : يا رسول الله ، كأنى أراك قد دخلتك خلة لفقد خديجة ، فقال : (أجل ، إنها كانت أم العيال ، وربة البيت) .

وهو وفاء نبوى يليق بالعارف الذكور صلوات الله وسلامه عليه .

والحديث الأول يرويه الإمام البخارى بألفاظ متقاربة فى روايتين عن أبى هريرة أولا ثم عن عبد الله بن أبى أوفى رضى الله عنهما .

وأم المؤمنين عائشة رضى الله عنها تروى مايدل على فضل خديجة رضى الله عنها على أمهات المؤمنين جميعاً . روى الإمام البخارى فى كتاب (مناقب الأنصار) بسنده عن عائشة رضى الله عنها قالت : (ما غِرْت على أحد من نساء النبى صلى الله عليه وسلم ما غرت على خديجة ، وما رأيتها ، ولكن كان النبى صلى الله عليه وسلم يكثر ذكرها ، وربما ذبح الشاة ثم يقطعها أعضاء ، ثم يبعثها فى صدائق خديجة ، فربما قلت له : كأن لم يكن فى الدنيا امرأة إلا خديجة ، فيقول : (إنها كانت وكانت وكان لى منها ولد) .

والحديث يرتبط فى الذهن برواية عند غير البخارى يقول فيها صلوات الله عليه وسلم : (لقد آمنت بى حين كفر الناس ، وصدقتنى حين كذبنى الناس ، وواستنى بنفسها ومالها ، ورزقنى الله منها الولد ، ولم يرزقنى من غيرها) .

إن كل ذلك حق وصدق من أقوال الصادق الأمين صلوات الله عليه ، وهو من هدايات القرآن له ، فالله يقول : « ولكل درجات مما عملوا »(١).

وقد ثبت فى الصحيحين عن أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (كمل من الرجال كثير ولم يكمل من النساء إلا آسية امرأة فرعون ومريم ابنة عمران وخديجة بنت خويلد ، وإن فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام) .

رضى الله عن سيدة نساء العالمين خديجة بنت خويلد .

---

(١) سورة الأحقاف ، الآية ١٩

النبى وفتور الوحى

فتر الوحى عن النبى صلى الله عليه وسلم حيناً ثم تتابع ، وكان فتوره امتحاناً عسيراً للنبى ، وفرصة ظن فيها من ظن أن رب محمد قد قلاه — حاشاه — فما كان ذلك إلا ضرباً من أساليب استجاشة شوق النبى إلى الوحى ، ووسيلة إلى مضاعفة حرص رسول الله على تلقى ما ينزل به أمين الوحى بإذن ربه إلى مصطفاه بما ينبغى له من اهتمام والتزام : « وما نتنزل إلا بأمر ربك له ما بين أيدينا وما خلفنا وما بين ذلك وما كان ربك نسياً »[1] .

أورد الإمام العينى قول الإمام البخارى : (وفتر الوحى فترة حتى حزن النبى عليه الصلاة والسلام فيما بلغنا حزناً غدا مراراً كى يتردى من رءوس الجبال ، فكلما أدنى بذروة جبل لكى يلقى منه نفسه ، يتراءى له جبريل عليه السلام فقال : يا محمد ، إنك رسول الله حقاً ، فيسكن لذلك جأشه ، وتقرّ عينه حتى يرجع ، فإذا طالت عليه فترة الوحى غدا لمثل ذلك ، فإذا أوفى بذروة جبل ، يتراءى له جبريل فقال له مثل ذلك) .

قال الإمام العينى : (وهذا من بلاغات معمر ، ولم يسنده ، ولا ذكر راوياً له أنه عليه السلام قاله ، ولا يعرف هذا من النبى صلى الله عليه وسلم مع أنه قد يحمل على أنه كان أول الأمر قبل رؤية جبريل عليه السلام ، كما جاء مبيناً عن ابن إسحق عن بعضهم ، أو أنه فعل ذلك لما أخرجه تكذيب قومه ، كما قال تعالى : « فلعلك باخع نفسك »[2]. أو أنه خاف

---

(١) سورة مريم ، الآية ٦٤ (٢) سورة الكهف ، الآية ٦

أن الفترة لأمر أو سبب ، فخشى أن يكون عقوبة من ربه ، ففعل ذلك بنفسه ، ولم يرو بعد شرع بالنهى عن ذلك فيعترض به ، ونحو هذا فرار يونس عليه السلام حين تكذيب قومه له) .

ولقد كان آخر أمر النبى صلى الله عليه وسلم خيراً له بالوحى من أول أمره ، وهو وجه وضىء من وجوه قوله تعالى : « وللآخرة خير لك من الأولى * ولسوف يعطيك ربك فترضى »(١).

ومما اتفق عليه الشيخان عن أنس بن مالك رضى الله عنه أن الله عز وجل تابع الوحى على رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل وفاته حتى توفى ، وأكثر ما كان الوحى يوم توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهذا لفظ مسلم رضى الله عنه . ولفظ الإمام البخارى : (إن الله تعالى تابع على رسوله ، قبل وفاته حتى توفاه أكثر ماكان الوحى ، ثم توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد) .

ولقد صار سيدنا محمد بن عبد الله رحمة الله المهداة ونعمته المسداة ورسوله إلى قومه أولا ثم إلى البشرية بأسرها منذ نزل الروح الأمين عليه صلوات الله عليه — وهو فى غار حراء — بقول الله تعالى : « اقرأ باسم ربك الذى خلق » الآيات .

ومضى صلوات الله عليه يبلغ باسم ربه الأمانة ويؤدى الرسالة إلى مختلف الآفاق ، خالصة من هوى النفس ، وطموح الأثرة ، مجردة من كل شىء إلا ابتغاء رحمة الله ، وطلب رضاه سبحانه : « قل أى شىء أكبر شهادة ، قل الله شهيد بينى وبينكم وأوحى إلىّ هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ »(٢) .

فمن بلغه القرآن بلسانه العربى ، أو بلغته حقيقة فحواه ، وما أراد الله

---

(١) سورة الضحى ، الآيتان ٤ و ٥ (٢) سورة الأنعام ، الآية ١٩

منه لعباده ، فقد قامت عليه حجة الله ، وكأنما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وإن تباعد الزمان واختلف المكان .

والله تعالى يقول : « وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً »(١).

ويقول : « تبارك الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً »(٢) .

ويقول : « قل يأيها الناس إنى رسول الله إليكم جميعاً »(٣) :

وحق للقرآن الكريم أن يكون منطلق الرسالة الخاتمة ، وأن يواكبها لينير مسالكها ، ويكون — والسنة المطهرة معه — أماناً من ضلال ، وضماناً فى رحلة الخلافة عن الله لإعلاء كلماته ، وحماية مقدساته ، وشدّ عرى الأبرار بالله وهدايات مصطفاه ، فالقرآن والسنة معاً هما المنهج والسبيل ، والمنار والدليل ، وتعس من خالف عن أمرهما قيد شعرة ..

« فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم »(٤) .

« ومن يطع الله ورسوله ويخش الله ويتّقه فأولئك هم الفائزون »(٥) .

« قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم * قل أطيعوا الله والرسول ، فإن تولوا فإن الله لا يحب الكافرين »(٦) .

وماذا وراء الكفر فى تذييل هذه الآيات ، من شر ينتظر جزاءه ومصايره ، من خالفوا عن أمر رسول الله ، وهو — لا ريب — من أمر الله تعالى .

«وما ينطق عن الهوى * إن هو إلا وحى يوحى * علمه شديد القوى»(٧).

---

(١) سورة سبأ ، الآية ٢٨
(٢) سورة الفرقان ، الآية ١
(٣) سورة الأعراف ، الآية ١٥٨
(٤) سورة النور ، الآية ٦٣
(٥) سورة النور ، الآية ٥٢
(٦) سورة آل عمران ، الآيتان ٣١ و ٣٢
(٧) سورة النجم ، الآيات ٣ — ٥

إن الهدى كله فى اتباع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، واتباعه يبقى زعماً ودعوى حتى تصدقهما طاعته ، والاستقامة على أمره ، والتزام ما دعا إليه أخذاً وتركاً ، وإيثار ما أوجب وإن خالف مألوف النفوس ، ومأنوس الناس ، فالمؤمن الحق هو الذى يجعل هواه تبعاً لما جاء به رسول الله كما قال : (لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به) .

وصدق الله العظيم : « فإن تولوا فإنما عليه ما حمل وعليكم ما حملتم ، وإن تطيعوا تهتدوا ، وما على الرسول إلا البلاغ المبين »[1] .

كيف صاغهم القرآن ؟

ولقد كان رسول الله يدعو المسلمين إلى أن تكون ألسنتهم رطبة بذكر الله ، والقرآن الكريم أجل ما ذكر به الله تعالى ، فقد كان نجوى نفس رسول الله وسكينة قلبه وربيع فؤاده ، ينطلق من كتاب الله داعياً إلى الله ، وهادياً من ضل ، ومبشراً ونذيراً ، ومسارعاً إلى الصلاة ، ومستجيباً لأمر الله تعالى ، وقاضياً به ، وكان يدعو أبا موسى الأشعرى إلى أن يذكر النبى وصحبه بالقرآن فيقول : (ذكرنا ربنا يا أبا موسى) ، وكان حقاً كما قال النبى صلى الله عليه وسلم : (لقد أوتى مزماراً من مزامير آل داود) فقرأ القرآن قائماً وقاعداً على راحلته ، وليلا ونهاراً شيئاً بعد شىء .

وأبو موسى عبد الله بن قيس كان أحد الأشعريين ، أخرج الإمام البخارى عنه ما تقدم من الأحاديث ، وقوله :

قال النبى صلى الله عليه وسلم : (إنى لأعرف أصوات رفقة الأشعريين بالقرآن حين يدخلون بالليل ، وأعرف منازلهم من أصواتهم بالقرآن بالليل ..) .

وهى عناية واهتمام من الأشعريين والتزام لكتاب الله ، يرتبط فى

(١) سورة النور ، الآية ٥٤

الخاطر بحال كثيرين من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان يسمع من بيوتهم بالقرآن فى الليل كدوىّ النحل . ! !

وكانوا فى نهارهم أحرص ما يكونون على أن يفسروا بأعمالهم وحالهم أوامر القرآن ونواهيه .

وتنويه النبى صلى الله عليه وسلم بابن مسعود وأُبىّ بن كعب وزيد بن ثابت وغير صحابى ممن كان لهم دور باسل فى جمع القرآن ، وفى كريم أدائه ، مذكور . وقد أورد أئمة الحديث من ذلك الكثير الذى نقف منه عندما أخرج الإمام البخارى فى فضائل الصحابة من صحيحه قال : (جمع القرآن على عهد النبى صلى الله عليه وسلم أربعة كلهم من الأنصار : أُبىّ ، ومعاذ بن جبل ، وأبو زيد ، وزيد بن ثابت) .

وأُبىّ هو ابن كعب ، وأبو زيد هو قيس من بنى حرام وهو من عمومة أنس بن مالك رضى الله عنه فى أشهر الأقوال .

وحديث الأربعة من رواية أنس لا يعنى أن غيرهم لم يجمع القرآن ، أى لم يحفظه ، وإنما المراد أنهم من الأنصار .

والحديث لا يعارض ما صح من قول ابن عمرو بن العاص عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (استقرئوا القرآن من أربعة : ابن مسعود ، وسالم مولى أبى حذيفة ، وأُبىّ ، ومعاذ) .

فإن تخصيص الأربعة يبرز أنهم أكثر ضبطاً لحفظ القرآن وأتقن لأدائه ، وإن كان غيرهم أفقه لمعانيه .

وأنس رضوان الله عليه أخرج له الإمام البخارى بسنده : قال النبى صلى الله عليه وسلم لأبىّ بن كعب : إن الله أمرنى أن أقرأ عليك : « لم يكن الذين كفروا » ، قال : لك ؟ ! قال : نعم . قال : فبكى .

قال الإمام العينى : (وفى رواية للقرطبى) : آلله سمانى لك ؟ بهمزة

الاستفهام على العجب منـه ، إذ كان مستبعداً لأمر تسميتـه تعـالى له ، وتعيينه ليقرأ عليه النبى صلى الله عليه وسلم تشريف عظيم ، فلذلك بكى من شدة الفرح .. وقديماً قيل :

ياعين قد صار البكا لك عادة   تبكين من فرح ومن أحزان

ومنه بكاء أبى بكر حين أخبره الرسول بالصحبة فى الهجرة .

وابن مسعود رضى الله عنه يقول : (والله الذى لا إله إلا هو ماأنزلت سورة من كتاب الله إلا وأنا أعلم أين أنزلت ، ولا أنزلت آية من كتاب الله إلا وأنا أعلم فيم أنزلت ، ولو أعلم أحـداً أعلم منى بكتاب الله تبلغه الإبل لركبت إليه) أخرجه البخارى ..

وأخرج الإمام البخارى بسنده عن عبد الله قال : قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم : (اقرأ علىّ) . قلت : أقرأ عليك وعليك أنزل ؟ قال : (إنى أحب أن أسمعه من غيرى) . فقرأت عليه سورة النسـاء ، حتى بلغت : « فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيـداً »[1]. قال : أمسـك ، فنظرت فإذا عيناه تذرفان ! ! وأخرجه الإمام مسلم قريباً من هذا ..

ذلك هو القرآن وعناية الرسول به أداءً وإنصاتاً له ، وتنويهاً بصحبه ذوى الباع والاهتمام به ، باعتباره كتاب الله ونعمته الكبرى على كل من كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد .

---

(١) سورة النساء ، الآية ٤١

الفصل الثاني

١ — عنصر الهداية فى كتاب الله .

٢ — أهم مقاصد القرآن .

٣ — أسرار الله فى خلقـــه :

(أ) هدايته للكائنات .

(ب) الهداية بين الله ، وبين الناس .

٤ — القرآن المهيمن :

نظرة فى كتب الله — مدى هيمنة القرآن على ما سبقه .

القرآن يتحدث — هل نتدبر القرآن ؟

من ثمرات تطبيقه — موجبات رحمة الله .

استمعوا له وأنصتوا — المؤمن الحق — مثال دال .

التزام القرآن كما بلغه النبى .

عنصر الهداية فى كتاب الله

كان النبى صلى الله عليه وسلم والذين معه — رضوان الله عليهم — قرآناً يتحرك ويسير فى الناس، فترى الحياة كتاباً ينظم عقد الحياة ، ويقيم أركانها ويرفع بنيانها ، فلا تختلف فيها السبل ، ولا تشتبه المسالك ، والقرآن يسطع نوره ، ويضوع عبيره ، ويرهف إحساس المسلمين بكل حال ، حتى يكونوا المسلمين بحق ، المستوجبين بإيمانهم توفيق الله ورضاه .

أخرج الإمام مسلم بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : لما نزلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لله ما فى السموات وما فى الأرض ، وإن تبدوا ما فى أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله ، فيغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء ، والله على كل شىء قدير »[1] .

قال : فاشتد ذلك على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم بركوا على الركب ، فقالوا : أى رسول الله ، كلفنا من الأعمال ما نطيق .. الصلاة والصيام والجهاد والصدقة . وقد أنزلت عليك هذه الآية ولا نطيقها .. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أتريدون أن تقولوا كما قال أهل الكتاب من قبلكم ؟ سمعنا وعصينا . بل قولوا : « سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير » . فلما اقترأها عليهم ، ذلت بها ألسنتهم ، فأنزل الله فى أثرها : « آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير »[2] .

---

(١) سورة البقرة ، الآية ٢٨٤ (٢) سورة البقرة ، الآية ٢٨٥

فلما فعلوا ذلك نسخها الله تعالى ، فأنزل الله عز وجل : « لا يكلف الله نفساً إلا وسعها لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت ، ربنا لا تؤخذنا إن نسينا أو أخطأنا » . قال : نعم « واعف عنا واغفر لنا وارحمنا أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين »(١) . قال : نعم .

وهكذا كان تأمل آية مصدر قلق وانزعاج ، لم يلبثوا بعدها إلا قليلا حتى كان رضاهم عن الله سبباً فى آيات أخرى نزلت بقصتهم ، وبرضى الله وغفرانه وبما بقى أدباً يأخذه الخلف عن السلف فى تأمل القرآن والانفعال به ابتغاء غفران الله ورضاه ..

وهكذا تتعدد مقاصد القرآن باعتباره كلام الله الخاتم إلى خلقه ، وهداياته — جلت أنعمه — إلى عباده الذين استخلفهم فى ملكه ، ومكنهم من الانتفاع بما خلقه لأجلهم فى سماواته وأرضه ، وما بين ذلك ، وأسبغ عليهم نعمه ظاهرة وباطنة ، ثم ألزمهم أوامره ، وحذرهم نواهيه وزواجره ، وامتن سبحانه عليهم فقال : « كنتم خير أمة أُخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله »(٢) .

والنظرة الفاحصة فى القرآن الكريم ، تتأدى بالمنصفين إلى أنه سهل المأخذ ، ميسور التناول ، مصداق قوله تعالى : « ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر »(٣) .

وتكررت الآية فى السورة لمقاصد جليلة .

وتضاعف النظرة من أُنس قلوب المؤمنين وهم يولون كتاب الله نظرهم ، ويعملون فى آياته وجمله وكلماته عقولهم فاقهين حكمة الله الذى يقول : « كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أُولوا الألباب »(٤) .

(١) سورة البقرة ، الآية ٢٨٦
(٢) سورة آل عمران ، الآية ١١٠
(٣) سورة القمر ، الآية ١٧
(٤) سورة ص ، الآية ٢٩

وتبرز النظرة المتأنية فى القرآن الكريم ظاهرة جديرة بالانتباه إليها ، وهى امتزاج شواهد توحيد الله ، بمشاهد وجوده ، وبالأحكام والتكاليف الإلهية والمواعظ الهادية ، ومسيرة البشرية من حول رسل الله ، من آمن منهم ومن كفر ، ومن برّ ومن غدر .

« ليهلك من هلك عن بيِّنة ويحيا من حى عن بيِّنة »[1] .

ولعل من حكم الله فى المزج بين مقاصده فى الكتاب العزيز أن تخدم جميعاً أشرفها وأعلاها وهو توحيد الله تعالى ، وإيجاب حقه فى أن يطاع فلا يعصى ، ويذكر فلا ينسى ، ويشكر فلا يكفر ، وبهذا يكون المؤمن عبد ربه حقاً ، يتبع هداه ، ويرتفع عن أنانياته وهواه إلى مراضى الله :

« الله نزَّل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً مثانى تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله ، ذلك هدى الله يهدى به من يشاء ، ومن يضلل الله فماله من هاد »[2] .

« أليس الله بكاف عبده ويخوِّفونك بالذين من دونه ،ومن يضلل الله فما له من هاد * ومن يهد الله فما له من مضل ،أليس الله بعزيز ذى انتقام »[3].

إن إنعام النظر فى القرآن ، وإعمال الفكر ابتغاء الهدى الذى أراده الله من إنزاله ، يعمق فينا إيماننا ، ويزيد معرفتنا بربنا ، ويشحذ عزمنا على متابعة رسول الله على الطريق التى يقول فيها رب العالمين : « قل هذه سبيلى أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعنى وسبحان الله وما أنا من المشركين »[4] .

ولقد قال الأول : (... إن العز فى النقل) أى فى التنقل من مكان إلى مكان ، ترفيهاً للنفس فى مرضاة خالقها ، وتخففاً من كلال العمل . وفى الأثر : (روِّحوا للنفس ساعة بعد ساعة فإنها إذا كلت عميت) .

---

(١) سورة الأنفال ، الآية ٤٢ (٢) سورة الزمر ، الآية ٢٥
(٣) سورة الزمر ، الآيتان ٣٦ و ٣٧ (٤) سورة يوسف ، الآية ١٠٨

وكم يلقى إلى السمع كلام ، فيكون انتقال الذهن فيه ، والتفاته من ضمير المخاطبة إلى ضمير المتكلم إلى ضمير الغائب ، تجديداً وجذب انتباه ، وسوقاً رفيقاً إلى المعرفة ، كما تنتقل الحواس فى حديقة مونقة بين شياة الحسن وأريج الزهر ، فلا يكاد ذلك يأخذ بأزمتها ويذهب بمكنون إعجابها ، حتى تسبيها رقة الظلال ، وانسياب الجداول ، وشدو البلابل ، من خلال الخمائل .

ولله ولكلماته المثل الأعلى ، فإن وجود هذه المقاصد الكثيرة فى كتاب الله تعالى يلحظ معها الذين سلمت مداركهم ، واستقامت وسائلهم ، ووطنوا أنفسهم على الإذعان للحق حين تظهر حججه ، ويتضح منهجه ، يلحظون تقرير توجيه الله بدلائله وبراهينه التى تختمها الأحكام الحكيمة والتكاليف الرحيمة ، ويدعمها القصص الدال ، وهو أسلوب نافع فى التربية والتقويم والهداية إلى الحق ، كما أحكمه الذى يعلم السر فى السموات والأرض ، ويعلم من خلق ..

« كتاب أحكمت آياته ثم فصّلت من لدن حكيم خبير »(١) .

إن القرآن الكريم كلام الله حقاً ، ونسبة آياته جميعاً إلى الله واحدة ، لا خلاف فى ذلك بين الذين يعتد برأيهم ، وإن كان يفضل بعضه بعضاً من حيث ما تقرره هذه الآية أو تلك من مقاصد القرآن .

وما يمارى عاقل فى أن معرفة الله تعالى أسنى المطالب ، وعبادته أشرف المقاصد ، ودوام الاتصال به قرة العين وسكينة القلب ، وكل آية من آيات الله المتلوّة من كتابه تعرض ما ذكرنا من حقائقه ، إنما تأخذ من الشرف والفضل ما هى أهله ، ويوجب عمق تأملها ، وصدق الإصغاء إليها ، والارتباط فى كل مواقع الحياة بفحواها ، حتى تحقق للمستبصرين عدة رب العالمين .

« إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم ، ويبشر المؤمنين الذين يعملون

(١) سورة هـود ، الآية ١

الصالحات أن لهم أجراً كبيراً * وأن الذين لا يؤمنون بالآخرة أعتدنا لهم عذاباً أليماً »(١) . ومن بقيت فى نفسه حاجة إلى مزيد برهان ، فليقرأ قول الله تعالى : «يأيها الناس قد جاءتكم موعظة من ربكم وشفاء لما فى الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين * قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون »(٢).

فإنه ستطيب نفسه بأن القرآن الكريم شفاء ورحمة .

قال الإمام ابن قيم الجوزية تعليقاً على الآية الأولى : (فهو شفاء لما فى الصدور من مرض الجهل والغىّ ، فإن الجهل مرض شفاؤه الرشد ، وقد نزه الله سبحانه نبيّه عن هذين الداءين فقال تعالى : « والنجم إذا هوى * ما ضلّ صاحبكم وما غوى * وما ينطق عن الهوى »(٣) .

ووصف رسوله صلى الله عليه وسلم خلفاءه بضدهما فقال : (عليكم بسنتى وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدى) .

وجعل الله سبحانه كلامه موعظة للناس عامة ، وهدى ورحمة لمن آمن به خاصة ، وشفاءً تاماً لما فى الصدور ، من استشفى به صح وبرئ من مرضه ، ومن لم يستشف به فهو كما قيل :

إذا بلّ من داء به ، ظن أنه نجا ، وبه الداء الذى هو قاتله

وقال تعالى : « وننزّل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلا خساراً »(٤) .

و«من» فى الآية هى فى الأظهر ليست للتبعيض ولكنها لبيان الجنس ، فإن القرآن كله شفاء ورحمة للمؤمنين ، وعافية للقلوب مما يعتادها من الزيغ والفتنة أثراً للغفلة عن الله والإعراض عن كلماته : « اقترب للناس حسابهم وهم فى غفلة معرضون * ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث إلا استمعوه وهم يلعبون * لاهية قلوبهم »(٥) .

(١) سورة الإسراء ، الآيتان ٩ و ١٠ (٢) سورة يونس ، الآيتان ٥٧ و ٥٨
(٣) سورة النجم ، الآيات ١ — ٣ (٤) سورة الإسراء ، الآية ٨٣
(٥) سورة الأنبياء ، الآيات ١ — ٣

أهم مقاصد القرآن

إن جماع ما أنزل الله لأجله القرآن أمور تتراءى فى آياته لمجرد النظر وهى :

أولا : تصحيح العقيدة ، وردّ الناس عما عراهم من شرك ، إلى فطرة الله فيهم : « فطرة الله التى فطر الناس عليها ، لا تبديل لخلق الله ، ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون »[١] .

ثانياً : تجريد قصد الناس إلى الله فيما لا يعين عليه من جلائل الأمور سواه ، وعبادته وحده على مقتضى ما بلغنا من صلاة رسول الله وصيامه ، وماوراء ذلك من تكاليف الإسلام ، التى هى سبيل تزكية النفس :

« ونفس وما سوَّاها * فألهمها فجورها وتقواها * قد أفلح من زكاها * وقد خاب من دساها » [٢] .

« قد أفلح من تزكى * وذكر اسم ربه فصلى »[٣] .

ولقدكان من ضراعات النبى صلى الله عليه وسلم ومناجاته للحى القيوم: (اللهم آت نفسى تقواها ، وزكها أنت خير من زكّاها ، أنت وليها ومولاها) .

وما أحق الهدى والتقى بأن نستعين بالله على بلوغ أقصى ما يمكن منهما ، لتصلح الدنيا وتطيب العقبى :

« فمن اتقى وأصلح فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون »[٢] .

---

(١) سورة الروم ، الآية ٣٠ (٢) سورة الشمس ، الآيات ٧ — ١٠
(٣) سورة الأعلى ، الآيتان ١٤ و ١٥ (٤) سورة الأعراف ، الآية ٢٥

ثالثاً : وعد الله لمن آمن وعمل صالحاً، ووعيده لمن كفر واتبع هواه، وتوكيد أن فى الإيمان والطاعة سعادة الأولى والآخرة ، وأن فى خلافهما الخسران والهوان فى الحياتين :

« وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنّهم فى الأرض كما استُخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم وليبدلنّهم من بعد خوفهم أمناً ، يعبدوننى لا يشركون بى شيئاً ، ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون »[1] .

ورحم الله الإمام أبا عبد الله محمد بن إدريس الشافعى فهو يقول : (إن فى كتاب الله تعالى آية لو عمل بها المسلمون لوسعتهم :

« والعصر * إن الإنسان لفى خسر * إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر »[2] .

وهو تعبير جليل من الإمام للسورة الجامعة — على وجازتها — لموجبات السعادة ، وقد كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يفارق الرجل منهم صاحبه حتى يقرأ عليه سورة العصر ، وكأنهم بذلك يستثير كل منهما صاحبه أن يذكره بما غاب عنه من صور الكمال البشرى الممكن ، وأن يكون عونه لبلوغ ما أراد الله من إيمان به ، وعمل بمراضيه ، وتواص بالحق الذى أرسل الله الرسل وأنزل الكتب ، وتواص باحتمال الصعاب فى الدعوة إلى الله ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وما لا بد من احتماله لمخالطة الناس ، فالمؤمن الذى يخالط الناس فى الله ويصبر على أذاهم خير من المؤمن الذى يعتزلهم قبل أن يؤدى دوره فى النصح لهم والإعذار إلى الله ، إن هم صَدّوا عن سبيله ، وعتوا عن أمر ربهم ، والله تعالى يقول لمصطفاه : « ولتسمعن من الذين أُوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيراً ، وإن تصبروا وتتقوا فإن ذلك من عزم الأمور »[3] .

(١) سورة النور ، الآية ٥٥ (٢) سورة العصر . (٣) سورة آل عمران ، الآية ١٨٦

ومن وعيد الله لمن ضل وأثم قوله : « واتل عليهم نبأ الذى آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين * ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث ، ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا ، فاقصص القصص لعلهم يتفكرون * ساء مثلا القوم الذين كذبوا بآياتنا وأنفسهم كانوا يظلمون »(١) .

والنبأ — مثلا كان أو واقعاً — هو أشبه شيء بمن يحيون فى زماننا وهم يحسبون على العلم والدعوة والاهتداء بهدى الله ، ولكنهم فى الحقيقة يفتنون عن الحق ، ويشترون بآيات الله ثمناً قليلا ، وهم يعلمون أن ما تتحلب له الشفاه من مناعم هذه الحياة ليس إلا برقاً خلباً ، وسحابة صيف عن قليل تقشع ، وخيال طيف تقتحمه الأعين لحظات ثم يكون بعد سلفاً وذكرى للذاكرين .

ورابع مايلحظ بين ما أنزل الله من أجله القرآن ، سوق أخبار الأولين وقصصهم وسلوك الأفراد والجماعات للعبر والعظة ، وبيان أحكام المعاملات ومقتضيات العيش الكريم ، وهى فى الإسلام إطار السعادة ، وينبوعها الدفاق ، لأنها شرع الله ووضع الحكيم الرحيم سبحانه .

ومغرق فى الضلال من يحسب السعادة فى غير دين الله ، ومن يطلبها بغير هداه : « ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور »(٢) .

« ومن أظلم ممن ذكر بآيات ربه فأعرض عنها ونسى ما قدمت يداه ، إنا جعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفى آذانهم وقراً ، وإن تدعهم إلى الهدى فلن يهتدوا إذن أبداً »(٣) .

« لقد كان فى قصصهم عبرة لأولى الألباب ما كان حديثاً يفترى ولكن تصديق الذى بين يديه وتفصيل كل شيء وهدى ورحمة لقوم يؤمنون »(٤) .

(١) سورة الأعراف ، الآيات ١٧٥ — ١٧٧
(٢) سورة النور ، الآية ٤٠
(٣) سورة الكهف ، الآية ٥٧
(٤) سورة يوسف ، الآية ١١١

والمؤمن يطالع فى آخر سورة الفاتحة أول ما دعا المؤمنون ربهم : « اهدنا الصراط المستقيم * صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين » .

وتتجدد الدعوة وتتردد فى آيات ذوات عدد من القرآن، إبرازاً للسمة التى يتميز بها القرآن أكثر من غيرها ، وهى أنه كتاب هداية .. ونحن نقرأ فى صدر سورة البقرة : « ألم * ذلك الكتاب لاريب فيه هدى للمتقين » .

وهدى الله تعالى يلحظ فى كل دين سماوى تقدم الرسالة الخاتمة ، ألسنا نقرأ فى جوانب من قصة آدم عليه السلام ، وفى سورة البقرة بخاصة ، قوله تعالى : « فإما يأتينكم منى هدى ، فمن تبع هداى فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون »[1] .

ويتكرر ذكر الموقف ، فنرى الكلمات الربانية وكأنها لم تتكرر ، ففيها كل الجدّة والقوة إلى البسط والاسترسال الذى كان من قبل على صورة الإجمال .. قال تعالى : « فإما يأتينكم منى هدى فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى * ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكاً ونحشره يوم القيامة أعمى * قال ربِّ لم حشرتنى أعمى وقد كنت بصيراً * قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى »[2] .

والتوراة كما يقول الله فى كتابه المهيمن : « إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور .. »[3] .

ويقول : « وآتينا موسى الكتاب وجعلناه هدى لبنى إسرائيل ألا تتخذوا من دونى وكيلا »[4] .

لكن القرآن الكريم ذهب بتنويه الله تعالى بأنه : « يهدى للتى هى أقوم »[5] .

(١) سورة البقرة ، الآية ٣٨
(٢) سورة طه ، الآيات ١٢٣ — ١٢٦
(٣) سورة المائدة ، الآية ٤٤
(٤) سورة الإسراء ، الآية ٢
(٥) سورة الإسراء ، جزء من الآية ٩

منذ أنزله الذى يعلم السر فى السموات والأرض، وقال: «شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن هدى للناس وبيّنات من الهدى والفرقان»(١).

أرأيت الهدى كيف يرتفع ويبرز ويلتمع بين مقاصد القرآن ؟! ذلك لأن الهداية حين تبلغ من إنسان مبلغها، أو يبلغ منها الإنسان ما قدر الله له، تكون نوره وحافزه إلى كل خير.

إن الله تعالى قد خلقنا مزودين بوسائل الارتقاء والتسامى، مستعدين للانتكاس والردّة إلى ما يجافى الكمالات والفضائل، وجلت منّة الله الذى حكى مقالة كليمه موسى عليه السلام:

« قال ربنا الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى »(٢).

فالله جل جلاله وعظم كرمه ونواله قد أعطى كل موجود خلقه المختص به ثم هداه إلى ما خلقه له من الأعمال — كما قال ابن قيم الجوزية رحمه الله:

الهداية أنواع:

وهذه هداية الحيوان المتحرك بإرادته إلى جلب ما ينفعه، ودفع ما يضره، وهداية الجماد المسخر لما خلق له، فله هداية تليق به، كما أن لكل نوع من الحيوان هداية تليق به، وإن اختلفت أنواعها وصورها، وكذلك كل عضو له هداية تليق به، فهدى الرّجلين للمشى تمشى بهما، واليدين للبطش والعمل، واللسان للكلام، والأذن للاستماع، والعين لكشف المرئيات، وهدى الزوجين من كل حيوان إلى الازدواج والتناسل وتربية الولد إلى التقام الثدى وطلبه. اهـ.

إنها هدايات الفطرة، وهى وجه من وجوه هدى الله للتى هى أقوم.

---

(١) سورة البقرة، الآية ١٨٥ (٢) سورة طه، الآية ٥٠

أسرار الله فى خلقه

١ – هدايته للكائنات :

إن تأمل الإنسان لما حوله من كائنات وأحياء ، وتفطنه لقيام كل شيء ، وتحركه وتناغمه وانسجامه مع ما سواه ، إن كان دليلا على خالق الخلق ، ومستوجب العبادة وحده، سبحانه وتعالى ، فهو فى ذات الوقت أدل دليل وأيسره على إثبات النبوّة ، وتوكيد أن الله الذى يسر للنمل والنحل والدواب من هوام وأنعام ، أن تحيا ، وأن تحافظ على نوعها ، وأن تعطى من نفسها ما أراد الله منها ، هو سبحانه الذى لا يخلى عباده المستخلفين من هدايات يستحقون بها شرف « ونفخت فيه من روحى » وشرف استخلاف الله للإنسان ، وإسباغ أنعمه ، تبارك وتعالى ، عليهم ظاهرة و باطنة ، وفى القمة منها العقل المفكر والقلب المستبصر (وهلك من ليس له قلب يعرف به المعروف وينكر به المنكر) كما قال الصحابى الجليل معاذ بن جبل رضى الله عنه .

وأود أن نتقاسم فى هذه اللحظات ، حلاوة إدراك بعض أسرار الله فى خلقه ومخلوقاته على النحو الذى يقول فيه ابن القيم رحمه الله بعد أن تكلم عن الهداية العامة وضرب لها أمثال ازدواج الزوجين ، وارتضاع الوليد ثدى أمه قال : (وهدى النحل أن تتخذ من الجبال بيوتاً ومن الشجر ، ومن الأبنية ، ثم تسلك سبل ربها مذللة لها لا تستعصى عليها ، ثم تأوى إلى بيوتها ، وهداها إلى طاعة يعسوبها – وهو أميرها وذكرها – وإلى اتباعه والائتمام به أين توجه بها ، ثم هداها إلى بناء البيوت العجيبة الصنعة المحكمة البناء ..) .

قال : (ومن تأمل بعض هداية الله المبثوثة فى العالم ، شهد بأنه الله الذى لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة العزيز الحكيم ، وانتقل من معرفة هذه الهداية إلى إثبات النبوّة بأيسر نظرة ولأول وهلة ، وأخصر طريق ، وأبعدها من كل شبهة ، فإن من لم يهمل هذه الحيوانات ، ولم يتركها معطلة بل هداها إلى هذه الهداية التى تعجز عقول العقلاء عنها ، لا يهمل أن يترك النوع الإنسانى الذى هو خلاصة الوجود الذى فضله وكرّمه على كثير من خلقه مهملا ، وسدى معطلا ، لا يهديه إلى أتقى كمالاته ، وأفضل غاياته ، بل يتركه معطلا لا يأمره ولا ينهاه ولا يثيبه ولا يعاقبه ، وهل هذا إلا مناف لحكمته ، ونسبة ذلك إلى الله مما لا يليق بجلاله ، ولهذا أنكر الله ذلك على من زعمه ، ونزّه نفسه عنه ، وبين تعاليه ، تبارك وتعالى ، عنه فقال : « أفحسبتم أنما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا ترجعون * فتعالى الله الملك الحق لا إله إلا هو رب العرش الكريم * ومن يدع مع الله إلهاً آخر لا برهان له به فإنما حسابه عند ربه ، إنه لا يفلح الكافرون »(١) .

والآية وهى تثبت كل ذلك الذى لحظه ابن قيم رحمه الله ، تقرر للعقل السليم ، وبنظره المستقيم ، إثبات المعاد ، ويلتقى العقل والشرع على جلاء هذه الحقيقة الكبرى ..

ويستظهر الإمام الجليل للهداية العامة وإثبات المعاد بقوله تعالى : « وما من دابة فى الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم ، ما فرطنا فى الكتاب من شىء ثم إلى ربهم يحشرون »(٢) .

ويكمن السر القرآنى العجيب فى مجىء الآية جواباً لسؤالهم وقولهم : « لولا أنزل عليه آية من ربه ، قل إن الله قادر على أن ينزل آية ولكن أكثرهم لا يعلمون »(٣) .

---

(١) سورة المؤمنون ، الآيات ١١٥ — ١١٨

(٢) سورة الأنعام ، الآية ٣٨   (٣) سورة الأنعام ، الآية ٣٧

لقد جاء الجواب مثبتاً النبوّة ، ومؤكداً أن من لم يهمل أمر كل دابة ولا طائر يطير بجناحيه ، بل جعلها أمماً ، وهداها إلى غاياتها ومصالحها كيف لا يهديكم إلى كمالكم ومصالحكم ؟!

إن إثبات النبوّة والتزام هداياتها هو تمام الهدى المفضى إلى حياة المؤمن الراضية ، وإلى قرة عينه بمآب محمود إلى الله ، يفوز فيه بجنة الله ودار كرامته : « فمن زحزح عن النار وأُدخل الجنة فقد فاز وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور »(١) .

٢ — الهداية بين الله وبين الناس :

والقرآن الكريم يذكر هدى الله لثمود ، بمعنى إقدارهم على التمييز بين الخير والشر والنفع والضر ، ودواعى النجاة ، ووسائل الهلكة . قال تعالى : « وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى ..) »(٢) .

أى أنهم تبينوا هذه الأمور ، ولكنهم ما هدوا إلى الحق، ولا التزموا بالصواب ، فقد وقفوا من الهدى عند حد الدلالة والبيان كما يقول تعالى لمصطفاه : « وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم »(٣) .

وفى الناس من يدلون على الخير ، ويهدون إلى الرشاد، ولكنه لا يقع إلا ما أراد الله للعباد .

وابن قيم يسمى هذا القسم هداية البيان والدلالة والتعريف لنجدى الخير والشر « وهديناه النجدين »(٤) أى طريق الضلال والهدى .

ويذكر قسماً ضرورياً لازماً ، حتى يكون هذا القسم فعالا وملزماً ، وهو هداية التوفيق والإلهام ، وهى الملحوظة فى قوله تعالى : « يضل من يشاء

(١) سورة آل عمران ، الآية ١٨٦ — (٢) سورة فصلت ، الآية ١٧
(٣) سورة الشورى ، الآية ٢٥ — (٤) سورة البلد ، الآية ١٠

ويهدى من يشاء »[١] .

وفى قوله تعالى لمصطفاه : « إن تحرص على هداهم فإن الله لايهـدى من يضل ... »[٢] .

وفى قوله صلى الله عليه وسلم : (من يهـده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادى له) .

وفى قوله تعالى : « إنك لا تهدى من أحببت .. »[٣] .

فنفى عنه هداية التوفيق والإلهام والإلزام التى هى من شأن الله وحده ، وأثبت لنبيه هداية الدعوة والبيان التى قال فيها سبحانه : « وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم »[٤] .

وذكر ابن القيم رحمه الله غاية الغايات من الهداية وهى الهداية إلى الجنة والنار .. إذا سيق أهلهما إليهما . قال تعالى : « إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات يهديهم ربهم بإيمانهم تجرى من تحتهم الأنهار فى جنات النعيم »[٥].

وقال أهل الجنة فيها : « الحمد لله الذى صدقنا وعده وأورثنا الأرض نتبوأ من الجنة حيث نشاء »[٦] .

وقالوا : « الحمد الله الذى هـدانا لهـذا وما كنـا لنهتـدى لولا أن هدانا الله »[٧] .

وقال تعـالى عن أهـل النار : « احشروا الذين ظلمـوا وأزواجهم وما كانوا يعبدون * من دون الله فاهدوهم إلى صراط الجحيم »[٨] .

والمؤمنون وهم يسألون الله الصراط المستقيم ، إنما يسألونه البيان والدلالة ، ويسألونه التوفيق والإلهام والعون على التزام ذلك والحياة به ، ومفارقة الدنيا

(١) سورة النحل ، الآية ٩٣
(٢) سورة النحل ، الآية ٣٧
(٣) سورة القصص ، الآية ٥٦
(٤) سورة الشورى ، الآية ٣٥
(٥) سورة يونس ، الآية ٩
(٦) سورة الزمر ، الآية ٧٤
(٧) سورة الأعراف ، الآية ٤٣
(٨) سورة الصافات ، الآيتان ٢٢ و ٢٣

حين يفارقونها على الطاعة والإذعان لله الذى لايظلم مثقال ذرة، ولا يضيع أجر من أحسن عملا .

ورحم الله الإمام ابن القيم فهو يقول : (فالمسئول — أى من الله تعالى — هو أصل الهداية على الدوام تعليماً وتوفيقاً وخلقاً للإرادة فيه ، وإقراراً وخلقاً للفاعلية وتثبيتاً له على ذلك) .

وقرر أن مايلزم المؤمن، سؤاله الهداية، أصلها وتفصيلها، علماً وعملا والتثبيت عليها والدوام إلى آخر الحياة ، لأن العبد مفتقر إلى الهداية فى كل نفس ولحظة فى جميع ما يأخذ وما يدع ، وما يأتى وما يذر ، أصلا وتفصيلا وتثبيتاً بقدر افتقاره إلى مزيد العلم والهدى على الدوام .. فاللهم ثبت قلوبنا على دينك ، ولا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا إلى الحق وإلى صراط مستقيم ..) .

إن الهداية فى أصل وضعها تكون للخير ، لكنها تنتقل على سبيل التهكم إلى غير الخير ، كما تقول : سوءُ عمل فلان يهديه إلى ما فيه حتفه ، أى يقوده إليه ، فهو من الدلالة الموصلة إلى جنس العمل جزاءً وفاقاً .

وقد وردت مادة (الهداية) فى آيات كثيرة ، إشارة إلى الهداية فى الدين ، كما فى مثل قوله تعالى :

« وإذ آتينا موسى الكتاب والفرقان لعلكم تهتدون »(٢).

« أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هُـم المهتدون »(٢) .

« فمنهم مهتد وكثير منهم فاسقون »(٣) .

وقد أخذت المادة ومشتقاتها من الاهتمام فى القرآن الكريم ما يشهد بجلال (الهدى) الذى يؤخذ دعماً للفطرة من كتاب الله ، كما يؤخذ من كل مايحيط بالإنسان السوى .

---

(١) سورة البقرة ، الآية ٥٣ (٢) سورة البقرة ، الآية ١٥٧

(٣) سورة الحديد ، الآية ٢٦

قد سخر الشيخ محمد رشيد رضا رحمه الله من أقوام ماروا فى ضرب الله الأمثال فى كتابه بالذباب والنمل والنحل والهدهد ثم قال : (وهو سبحانه — ولله الحكمة البالغة — يظهر ما فى هذه المحتقرات من أسرار الله فى خلقه من جهة ، ثم هو من جهة أخرى يلفت الأذهان إلى ما فى الإنسان — وهو أسمى مخلوقات الله — من أسراره ونفحاته) .

ويقول فى ج ١ من تفسير المنار ص ٢٤٠ : (وقد عهد من أهل البصيرة الاقتداء بالحيوان والاستفادة من خصالها وأعمالها ، وحكى عن بعض كبار الصوفية أنه قال : تعلمت المراقبة من القط) ! !

وعن بعض حكماء المسلمين أنه قرأ كتاباً أكثر من ثلاثين مرة فلم يفهمه ، فيئس منه وتركه ، فرأى خنفسة تتسلق جداراً ، وتقع ، فعدّ عليها الوقوع ، فزاد على ثلاثين مرة ولم تيأس ، حتى تمكنت بعد ذلك من تسلقه ، والانتهاء إلى حيث أرادت ، فقال : لن أرضى أن تكون هذه الخنفسة أثبت منى وأقوى عزيمة ، فرجع إلى الكتاب فقرأه حتى فهمه !

أجل ومن موروثاتنا الإنسانية : (تعلم من كل شىء أحسن ما فيه ، حتى من الكلب وفاءه لسيده ، ومن الصقر بكوره فى طلب حوائجه) .

وكان لقمان عليه السلام يقول لابنه : (يابنى لا يكن الديك أكيس منك ، ينادى بالأسحار وأنت غافل) .

فاللهم ثبت قلوبنا على الفطرة ، وألزمنا هداك ماحيينا ، فى ديننا ودنيانا ، فأنت ولىّ ذلك والقادر عليه دون سواك .

القرآن المهيمن

١ – نظرة فى كتب الله :

كان إنزال القرآن فى ليلة القدر ، ابتداءً ، رسالة الخير ، وقيام أمة كانت – بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، والإيمان بالله – خير أمة أخرجت للناس .

« إنا أنزلناه فى ليلة مباركة إنا كنا منذرين * فيها يفرق كل أمر حكيم * أمراً من عندنا إنا كنا مرسلين * رحمة من ربك إنه هو السميع العليم »[١] .

« إنا أنزلناه فى ليلة القدر * وماأدراك ما ليلة القدر * ليلة القدر خير من ألف شهر * تنزل الملائكة والروح فيها بإذن ربهم من كل أمر * سلام هى حتى مطلع الفجر »[٢] .

ومن الحقائق الكبرى التى صاحبت نزول القرآن أنه هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان .

فالقرآن الكريم على أنه الجنس العالى فى كلام الله تعالى ، وذلك جانب من جوانب إعجازه التى لا تتناهى ، فهو آيات بينات من ذلك الهدى الربانى .

وإذا كانت كتب الله فى نبعها الأصيل – لا فيما هى عليه فى أيدى الناس من نسج ، وبمرام لا نصفها ، إذا كانت الكتب السابقة كلها هدى

---

(١) سورة الدخان ، الآيات ٣ – ٦ (٢) سورة القدر ، الآيات ١ – ٥

— وهى كذلك — فإن القرآن بمراميه وتقصيه واستيعابه وبيانه ، يفضل هذه الكتب جميعاً ، وهل كان كتاب دانيال النبى الذى أنزله الله ليقرأه عليهم لعلهم يهتدون ، إلا ألغازاً وأحاجى ورموزاً لا تفهم مراداتها إلا بشق الأنفس .

والتوراة التى أنزلها الله على كليمه موسى ، فيها هدى ونور ، ولكن الأحكام لم تتضح فيها على النحو الذى تتراءى به فى القرآن المستبين .

وعلى حين كان يخفى على تلاميذ عيسى عليه وعلى أنبياء الله ورسله السلام ماكان يشافههم به من المواعظ والأحكام ، كان القرآن .. وسيبقى من الحكمة ويسر التناول إلى المدى الذى امتن الله به فقال : « ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر »(١).

وفى كل مرة تكررت فيها هذه المنة فى سورة القمر ، تقدم الجديد الطارف من بيان فضل الله وهداه . قال ابن كثير فى الآية : (لقد سهلنا لفظه ، ويسرنا معناه لمن أراده ليتذكر الناس ، كما قال تعالى : « كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدّبروا آياته وليتذكر أولو الألباب »(٢).

وقال : « فإنما يسرناه بلسانك لتبشر به المتقين وتنذر به قوماً لداً »(٣).

قال مجاهد : « يسرنا القرآن للذكر » هوَّنَّا قراءته ، وهو قريب من قول السرى يسرنا تلاوته على الألسن .

ويروى الضحاك عن ابن عباس قوله : (لولا أن الله يسره على لسان الآدميين ، ما استطاع أحد من الخلق أن يتكلم بكلامه عز وجل) . ثم قال ابن كثير :

---

(١) سورة القمر ، الآية ١٧
(٢) سورة ص ، الآية ٢٩
(٣) سورة مريم ، الآية ٩٧

وقوله : « فهل من مدكر » أى متذكر بهذا القرآن الذى قد يسر الله حفظه ومعناه :

وتكرار هذه الآية على ما سبق ، هو التنبيه وإفهام هذه الأمة ما فى قصص الأولين من عبر وتوجيهات تؤخذ، وعظات فيها بلاغ لقوم يعقلون .

قال القرطبى : إن الله تعالى اقتص فى سورة القمر على هذه الأمة أنباء الأمم وقصص المرسلين ، وما عاملتهم به الأمم ، وماكان من عقبى أمورهم وأمور المرسلين .

وإن حفظ الله للقرآن الكريم بنفسه وبمن شاء من خاصته منة له تبارك وتعالى فى قوله : « إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون »[١] .

فالقرآن محفوظ بنا وبغيرنا ، ولكن اتضاح معانيه ، وظهور مغازيه، واستعلان مضامينه ومطاويه هى المناط الذى امتاز به القرآن فيما امتاز به على الكتب من قبله . قال تعالى : « أولم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم إن فى ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون »[٢] .

« بل هو آيات بينات فى صدور الذين أوتوا العلم »[٣] .

٢ — مدى هيمنة القرآن على ما سبقه :

وليتسع لوعى المنصف مدى هيمنة القرآن على كتب الله تعالى نقدم فى السياق إضافة .. وراءها أمثالها .. قال تعالى :

« قل فأتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين »[٤] .

« إن هـذا القرآن يقص على بنى إسرائيل أكثر الذى هم فيه يختلفون »[٥] .

---

(١) سورة الحجر ، الآية ٩
(٢) سورة العنكبوت ، الآية ٥١
(٣) سورة العنكبوت ، الآية ٤٩
(٤) سورة آل عمران ، الآية ٩٣
(٥) سورة النمـل ، الآية ٧٦

وهل يقصّ القرآن ويهدى إلا وهو من الوضوح وصدق الدلالة بالقدر الذى يعين على ذلك ؟!

إن مخاطبة الناس بما لا يفهمون فتنة لهم وامتحان قاس لعقولهم ، وهو عذر لهم ناهض بعد أن قال الله تعالى : « ونزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شىء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين »(١) .

والعلماء يرون فى هذه الآية ، وحدها ، ستة أسماء للقرآن ابتداءً من أنه منزل ، وأنه الكتاب ، وأنه تبيان ، وهو هدى ورحمة وبشرى لمن آمن .

ولفظ (التبيان) أجمع .. لا ريب — وأوعى من لفظ (البيان) وهو فهم لم يعدوا فيه قولهم : إن ضخامة المبنى شاهد ضخامة المعنى — ولنمض مع القرآن متحدثاً عن القرآن ، فأكرم به من متحدث ، وأكرم به من حديث .. قال تعالى : « وما كان هذا القرآن أن يفترى من دون الله ولكن تصديق الذى بين يديه وتفصيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين »(٢) .

وما دام الصدق مظهره ومخبره ، وما دام مصدقاً لما صحت نسبته إلى المرسلين صلوات الله عليهم ، ومادام بين الغرض واضح الدلالة إلى المدى الذى يؤكد نسبته إلى الله ، فإن ذلك كله مما يضاعف حقه فى التزام هداياته .

٣ — القرآن يتحدث :

والقرآن يتحدث : « وتمت كلمة ربك صدقاً وعدلا لا مبدل لكلماته وهو السميع العليم »(٣) .

« وأوحى إلىّ هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ »(٤) .

---

(١) سورة النحل ، الآية ٨٩
(٢) سورة يونس ، الآية ٣٧
(٣) سورة الأنعام ، الآية ١١٥
(٤) سورة الأنعام ، الآية ١٩

يقول القرطبي : (من بلغه القرآن فكأنما قد رأى محمداً صلى الله عليه وسلم وسمع منه) .

وقال مقاتل : (من بلغه القرآن من الجن والإنس فهو نذير له) .

وقد أورد القرطبي هذا الخبر بعد قوله : (وفى الخبر : من بلغته آية من كتاب الله ، فقد بلغه أمر الله ، أخذه أو تركه) .

ونتابع المسيرة مع القرآن فى حديثه عن القرآن .

قال تعالى : « ولقد صرفنا فى هذا القرآن ليذكروا .. »(١) .

إن التذكر والتدبر ، واستكناه ما يعين الله على إدراكه من مغازى كتابه هو مراد الله من إنزاله على مصطفاه صلوات الله عليه ، وما قرأ القرآن ، وإن تلاه عشرات المرات ، من لم يرتفع به إلى مستوى الفهم والتبين ، وذلك — لو كان — سبيل العودة بالأمة إلى عهدها الأول فى الريادة والقيادة ، لا بعبد شمس ولا بنوفل ، ولكن بكتاب الله ، وأين الناس من مثل قوله تعالى : « وإذا قرئ القرآن فاستمعوا له وأنصتوا لعلكم ترحمون »(٢) .

و« لعل » هنا موجبة لرحمة الله ، التى يوجبها ، فضلاً منه سبحانه وكرماً ، للذين أعطوا القرآن الاستماع الواعى ، الذى ترهف له السمع ، ونعمل فيه العقل ، وهو القلب فى قوله تعالى : « إن فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد »(٣) .

إن هيمنة القرآن بصدق وأمانة على ما تقدمه ومن تقدم عصره من المرسلين وأممهم ، تبرز فى عرضه الأمين المستوعب ، على وجه يشهد — وحده — بمصدر هذا القرآن ، ومن أنزل إليه ليقيم حق الله ، ويرفع به حجته على الذين يجادلون فى الحق بعد ما تبين ، عصراً بعد عصر ،

---

(١) سورة الإسراء ، الآية ٤١ (٢) سورة الأعراف ، الآية ٣٠٤
(٣) سورة ق ، الآية ٣٧

وفى قطر وراء قطر ، حتى فى عصر النور ، وهيئات البحث العلمى ، والمعاهد المتخصصة بآلاتها وأجهزتها المعقدة والميسرة ، التى يسعد أنفس الأسوياء ما تهدى إليه ، مما يكون إضافة علمية تلقى النور فى طريق الأحياء وتزيدهم قدرة على استكناه أسرار الله من كتابه المتلو ، وكتابه المجلو .. بالقدر الذى يسوء الأنفس حين يستخدم بعض المتعالمين هذه الأجهزة فى اكتشاف شكليات ومظاهر وقشور ، تشغل الناس عن الأصل الأصيل من إنزال القرآن الكريم ، وهو عنصر الهداية فى كتاب الله ، بما تجلوه العقيدة الحقة ، والعبادة والسلوك الذى لم يكشف معالمه إلا القرآن الكريم .

ومع إعزازنا للدكتور موريس بوكاى ، والجهد الطيب الذى بذله لإقامة حجة القرآن ، وحقه على الكتب السماوية الأولى ، فما ينبغى أن يفوتنا العطاء الذى قدمه الدكتور محمد عبد الله دراز فى غير كتاب من كتبه ، وفى كتابه (مدخل إلى القرآن الكريم — الفصل الثانى) منه ، حيث عرض كلام بعض الغربيين (تشابه قصص القرآن) مع (قصص التوراة) وارتباطه — حاشاه — بالأساطير التاريخية ، أكثر من ارتباطه بالحقائق التاريخية ، حتى قال — رحمه الله — بعد مناقشة هذه الآراء ودحضها بالبرهان قال عنها : جهد ضائع ، بل إن ذلك سيكون معناه بالحرف الواحد اصطناع أسلحة تفيد منها المبادئ القرآنية ، إذ أن هذه التعاليم موجودة فى الكتب السماوية السابقة . قال تعالى : « وإنه لفى زبر الأولين »(١).

« إن هذا لفى الصحف الأولى * صحف إبراهيم وموسى »(٢).

كما أن شهادة علماء بنى إسرائيل دليل كاف على صدقها :

« أولم يكن لهم آية أن يعلمه علماء بنى إسرائيل »(٣) .

فهل نتدبر الكتاب المهيمن ؟ !

---

(١) سورة الشعراء ، الآية ١٩٦ (٢) سورة الأعلى ، الآيتان ١٨ و ١٩

(٣) سورة الشعراء ، الآية ١٩٧

هل نتدبر القرآن ؟

إن القرآن الكريم قد تضمن من الأسرار ، وكنوز العلم والمعارف ، وشريف الهدايات والتوجيهات ، ما يشهد بنسبته حقاً إلى عالم السر والنجوى ، ومايوجب أن يتدبره الذين يبتغون رضا الله فى عاجل وآجل ، وإذا كان سبر أغوار الأمور التى تعرض للحى ، ومحاولة إدراك كنه الأشياء ، ووجوه الانتفاع بها على أتم حالاته ، أمارة عقل العاقل ، وعلم العالم ، وفقه الفقيه ، وامتياز الإنسان على من يليه ، فإن تدبُّر ما نتلوه أو نسمعه أو نسجله بأقلامنا من كتاب الله تعالى ، أوجب مايجب له ، وأحق ما ينبغى لكلام الله وهداياته جلت أنعمه ، وإذا كان بعضنا يصغى جهده لكلام فلان وفلان ، ويفرغ وسعه لتعرف دلالاته حتى يكون هو وصاحب الكلام على الجادة والاتجاه السليم ، فإن القرآن الكريم يستوجب أضعاف أضعاف ذلك .

ولقد ذكر الله تعالى فى مقام الثناء فريقاً من بنى إسرائيل استثناهم من عموم قوله :

« ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم .. »[1] .

فقال تعالى : « الذين آتيناهم الكتاب يتلونه حق تلاوته أولئك يؤمنون به ، ومن يكفر به فأولئك هم الخاسرون »[2] .

والكتاب على ذلك الفهم هو التوراة ، والقول بالعموم فى مثل هذا

---

(١) سورة البقرة ، الآية ١٢٠ (٢) سورة البقرة ، الآية ١٢١

الموقف أحجى وأحكم ، وتلاوة الكتاب حق تلاوته أعم من مجرد قراءته ، فهى مع ذلك تدبّر ، واستشعار لما تتناوله الآيات مما يتاح من الأحكام والأسرار ، ورحم الله الإمام القرطبى فقد أورد فى السياق كلمة عمر بن الخطاب (أنهم الذين إذا مروا بآية رحمة سألوها من الله ، وإذا مروا بآية عذاب استعاذوا منها) . قال الإمام القرطبى : وهذا المعنى قد روى عن النبى صلى الله عليه وسلم إذا مر بآية رحمة سأل ، وإذا مر بآية عذاب تعوَّذ .

وهم عند الحسن : (الذين يعملون بمحكمه ، ويؤمنون بمتشابهه ، ويكلون ما أشكل عليهم إلى عالمه) .

وما أندى وقع قول أبى موسى الأشعرى على القلب : (من يتبع القرآن يهبط به على رياض الجنة) .

ولا ينفذ إلى معانى الرحمة ، ومعانى العذاب ، ولا يتفطن إلى المحكم والمتشابه فى أكرم كتاب ، إلا من أولوه وعيهم وتدبرهم ، وأعملوا فيه — جهدهم — فطرهم ، وتعانقت البصائر والأبصار معاً فى ذلك .

وإن فى الآية لإشارة ضمنية إلى أقوام لا يتلون القرآن حق تلاوته ، ولا يقرأونه واعين ، ولكن جاهلين أن مراد الله من إنزال كتابه أن نتدبره ونتذكره بالغين ما يعين الله على إدراكه من معانيه قبل أن يقال :

زوامل للأسفار لا علم عندهم   بجيدها ، إلا كعلم الأباعر
لعمرك مايدرى البعير ، إذا غدا   بأوساقه أو راح ما فى الغرائر

يقول الشيخ محمد رشيد رضا رحمه الله :

(إن الذى يتلو الكتاب لمجرد التلاوة ، مثله كمثل الحمار يحمل أسفاراً ، فلا حظّ له من الإيمان بالكتاب ، لأنه لا يفهم أسراره ، ولا يعرف هداية الله فيه ، وقراءة الألفاظ لا تفيد الهداية ، وإن كان القارئ يفهم مدلولاتها من كلام المفسر أو المعلم) .

وأورد بحث الإمام أبي حامد الغزالى — رحمه الله — فى (موانع فهم القرآن) وذكر من حجب الفهم أموراً منها :

(أن يكون الهم منصرفاً إلى تحقيق الحروف ، بإخراجها من مخارجها والإمعان فى ذلك شاغل لا ريب عن فهم معانى كلام الله ، وخير الأمور أوساطها .

ومنها التعصب لمذهب سمعه فقلده وجهد عليه دون أن يكون قد صار إليه بعد قراءة وتدبر ، وإعمال فكر ، وإنعام نظر ، واصطحاب تقوى الله .

« واتقوا الله ويعلمكم الله ... »(١).

إن أمر الله أن نتدبر كتابه، يجلوه قوله تعالى : « أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً »(٢).

« أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها »(٣).

وفى مجال بيان حال من يغفلون عن الله فى السعة ، ويصطرخون عند المواخذة بقول الله تعالى : « حتى إذا أخذنا مترفيهم بالعذاب إذا هم يجأرون * لا تجأروا اليوم إنكم منا لا تنصرون * قد كانت آياتى تتلى عليكم فكنتم على أعقابكم تنكصون * مستكبرين به سامراً تهجرون * أفلم يدبروا القول أم جاءهم ما لم يأت آباءهم الأولين »(٤).

والقول ههنا — قولا واحداً — هو القرآن ، وكيف يستجيب المستخلفون إذن أمر الله تعالى فى كتابه وهم لم يتدبروه ؟!

يقول الحسن رضى الله عنه : (إنكم اتخذتم قراءة القرآن مراحل ، وجعلتم القرآن جملا تركبونه ، فتقطعون به المراحل ، وإن من كان

---

(١) سورة البقرة ، الآية ٢٨٢ (٢) سورة النساء ، الآية ٨٢
(٣) سورة محمد ، الآية ٢٤ (٤) سورة المؤمنون ، الآيات ٦٤ — ٦٨

قبلكم رأوه رسائل إليهم من ربهم ، وكانوا يتدبرونه بالليل وينفذونه بالنهار) .

وهذا عبد الله بن مسعود رضى الله عنه — ابن أم عبد — كما كان يدعوه النبى صلى الله عليه وسلم ، يقول : (أنزل عليهم القرآن ليعملوا به ، فاتخذوا تلاوته عملا ، إن أحدهم ليتلو القرآن من فاتحته إلى خاتمته ما يسقط منه حرفاً ، وقد أسقط العمل به) .

ولقد قرأ أحدهم القرآن على شيخه .. قال : (فلما ختمته أردت الرجوع من أوله ، فقال لى : اتخذت القراءة على عملا ؟! اذهب فاقرأه على الله فى ليلك ، وانظر فيما يفهمك منه) ! ! وهو بذلك ينهزه ويحفزه على أن يعمل بما يفهم حتى لا يكون القرآن حجة عليه عند الله .

والإمام الغزالى رحمه الله يرى قراءته آية واحدة بتدبر ولو طول ليلة خيراً من ختمة كاملة بدون تدبر ، ويقول : (فإن تحت كل كلمة منه أسراراً لا تنحصر ولا يوقف عليها إلا بتدقيق الفكر عن صفاء القلب بعد صدق المعاملة) .

قال : (وكذلك حكم مطالعة أخبار النبى صلى الله عليه وسلم ، فإنه أوتى جوامع الكلم ، فكل كلمة من كلامه صلى الله عليه وسلم ، بحر من بحور الحكمة ، لو تأمله العالم حتى تأمله لم ينقطع نظره فيه طيلة عمره) !

ورحم الله مجاهداً فقد قال : (إن أحب الخلق إلى الله أعلمهم بما أنزل الله) .

وابن عطية يقول فى قول الله تعالى لنبيه ومصطفاه صلوات الله عليه : « إنا سنلقى عليك قولا ثقيلا »[1] :

---

(١) سورة المزمل ، الآية ٥

(إنه علم معانيه ، والعمل به ، والقيام بحقوقه ثقيل ، فمال الناس إلى اليسر ، وتركوا الثقيل ، وهو المطلوب منهم) .

وقال قتادة : ثقيل والله فرائضه وحدوده . وأورد كلمة الحسن بن فضيل : (لا يحمله إلا قلب مؤيد بالتوفيق ، ونفس مزينة بالتوحيد) .

فمتى نتدبر القرآن ونحن نتلوه حق تلاوته .

٤ — ثمرات تطبيق القرآن :

إن تطبيق القرآن ، وفرض هيمنته على أقوالنا وأفعالنا ، هو شاهد توحيدنا الحق لله ، وهو سبيل توفيقه وهداه ، اللذين يفيضهما على من استعان به واستهداه ، ومن التمسهما فى غير القرآن ، ومن دون الرحمن ، فقد ضل ضلالا بعيداً .

وإجماع العلماء ، والواقع يسنده ، أن الذين أسعدهم الله من القرآن بالتذكرة ، وأيقظهم بالتبصرة ، ولم يخلدوا إلى الأمانى بالكلام — مجرد التكلم بالقرآن — بلا اعتبار ولا استبصار ، أولئك هم المفلحون ، فإن قوماً غرَّتهم أمانى المغفرة حتى خرجوا من الدنيا ولا حسنة لهم ، ولا زاد يبلغ ، فخسرت تجارتهم ، وبارت سلعتهم ، وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون ، « وما ظلمهم الله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون » ، فقد عاشوا على قيد شبر من القرآن وهدايته ، لو أبصرت عين ، وسمعت أذن ، وأخذ الإنسان شىء من العلم بأن كتاب الله هو العاصم من الهلكة ، وطوق النجاة إذا اعتكر ليل الحياة :

« يأيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم وأنزلنا إليكم نوراً مبيناً * فأما الذين آمنوا بالله واعتصموا به فسيدخلهم فى رحمة منه وفضل ويهديهم إليه صراطاً مستقيماً »[1] .

(١) سورة النساء ، الآيتان ١٧٤ و ١٧٥

وصدق الله العظيم : « ومن أظلم ممن ذكّـر بآيات ربه فأعرض عنها ونسى ما قدمت يداه ، إنا جعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفى آذانهم وقراً ، وإن تدعهم إلى الهدى فلن يهتدوا إذن أبداً »(١) .

والإمام علىّ رضوان الله عليه يمـــدح المؤمن العامل بالقرآن ، وهو لاريب يعمل على أساس من علم ونظر وتدبر وتثبت من أوامر الله ونواهيه ويقين بأنه من اعتصم بحبل الله فاز وأفلح :

« ومن يعتصم بالله فقد هُـدى إلى صراط مستقيم »(٢) .

يقول أبو الحسنين رضى الله عنه : (قد ألزم الكتاب زمامه ، وجعله أمامه ، فهو قائده ودليله ، يحلّ حيث يحل ثقله ، وينزل حيث كان منزله ، ولا يدع للخير غاية إلا أمـّـها ، ولا منزلة إلا قصدها) .

إن النظرة الأولى فى القرآن الكريم تتأدى بالمنصف — لا ريب — إلى أنه كتاب الله حقاً ، ويطالعه بغير خفاء كل ما لله تعالى من نعوت الجلال والكمال والجمال والعلم المحيط بما خلق الله تعالى وبمن خلق ، على نحو لايمكن أن يشاركه فيه غيره أو فى شىء منه .

إنه كلام يرى فى ضوئه مافى غيره من إنعام وإحسان ، وهو يعرض قضايا الأزل والأبد ، ويخاطب بذلك كله الفرد والجماعة ، والأمم والشعوب ، ودين الإنسانية بأسرها يخاطب خطاباً عاماً لا يتقيد بالزمان الذى أُنزل فيه على نبينا محمد صلوات الله عليه بمكة ، ولا بالبقعة التى ارتضاها الله منزلا للوحى ، ومهداً للتوحيد ، ومنطلقاً للرسالة الخاتمة ، إلى ما وراءها من المنازل ، وإلى من بلغتهم من الناس بيضاً وصفراً وحمراً ، وهذا العموم فى خطاب القرآن الكريم بالتكاليف والهدايات الإلهية ، شاهد أنه — كذلك — كلام الله لا كلام مصطفاه ، صلوات الله عليه . فالأمر بإقام الصلاة ، وصيام رمضان ، وإخراج الزكاة على تفصيل مقاديرها ومخارجها ومصارفها

(١) سورة الكهف ، الآية ٥٧ (٢) سورة آل عمران ، الآية ١٠١

يعطى المكلفين، فى مختلف منازلهم ، فرص الحركة إلى هذه الفرائض على صورة تختلف فى الزمان من مكان عن مكان ، وإن لم تختلف قيد شعرة عن قوله صلى الله عليه وسلم : (صلوا كما رأيتمونى أصلى) .

وعن قوله فى الحج : (خذوا عنى مناسككم) متفق عليه .

وقوله : (لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به) .

حين تتوفر الاستطاعة ويتيسر الإمكان ، والمؤمن يقرأ قوله تعالى : « وأوحىَ إلىّ هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ »[1].

وأمثالها كثير فى كتاب الله ، فنراها حجة ودليلا على عموم الرسالة .. والقرآن كتاب هذا الدين يزخر بما يوائم هذا العموم، وماتقتضيه أحوال الناس فى منشط ومكره ، وفى عسر ويسر ، وبكل حال .

وقد جاء الخطاب العام فى كل ذلك بأسلوب يتسم بالمرونة والسعة، والقدرة على استيعاب ما يجد ويحدث من قضايا وأمور ، يوافى الناس فى دين الله ، وفى كتابه حلولها والإجابة عليها عبر العصور ، وفى شتى المواقع .

وكم فى القرآن من أعاجيب ينفد العجب ولا تنفد .. ولنأخذ منها ظاهرة تثير الانتباه ، وتوقظ الأحاسيس جميعاً ، فهى توجب ما استهدفناه من وجوب تدبر القرآن والأنس بهداياته ..

إن تلكم الظاهرة هى (حديث القرآن عن القرآن) .

ولعل مراد الله تعالى من هذه الظاهرة أن يحكم المسلمون بالقرآن الكريم وثاقهم ، وقد ظهرت مقاصده ، وبهرت بعض أسرار الله فيه ، وبدت ضرورة الأخذ به ، على نحو لا انفكاك عنه .

« فبأى حديث بعد الله وآياته يؤمنون »[2] .

---

(١) سورة الأنعام ، الآية ١٩ (٢) سورة الجاثية ، الآية ٦

وأن ينسج المسلمون على منوال كتاب الله، فى شتى شئونهم ، فما لهم من ذلك بدٌّ ، ولا لهم عن ذلك بديل .

وأنعم نظرك .. مرة أخرى — فى آية من الآيات التى يتحدث فيها القرآن عن القرآن .. وهى قوله تعالى : « شهر رمضان الذى أُنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان »[1] .

فستجد الآية تواجهك بطائفة من الحقائق التى تطيب بها النفس ، لم تفسدها الأهواء ، ولم تؤفها آفة عقلية أو نفسية مما يصيب أعداء الحق فى إعصار وأمصار .

« لقد أنزلنا آيات مبينات والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم * ويقولون آمنا بالله وبالرسول وأطعنا ثم يتولى فريق منهم من بعد ذلك وما أولئك بالمؤمنين * وإذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم إذا فريق منهم معرضون * وإن يكن لهم الحق يأتوا إليه مذعنين * أفى قلوبهم مرض أم ارتابوا أم يخافون أن يحيف الله عليهم ورسوله، بل أولئك هم الظالمون »[2].

إن فى طليعة الحقائق التى تواجه المؤمن فى قوله تعالى: « شهر رمضان ... الآية » أن إنزال القرآن كان علامة كبرى على شرف القرآن نفسه ، إذ بدأ نزوله فى شهر اختصه الله بعبادة نسبها إليه — جلت آلاؤه — فى شهر رمضان ، وهو الأيام المعدودات التى كتب الله صيامها على الأمة الوارثة كيلا تسبقها أمة بطاعة أو فضيلة من الفضائل .

وكما أن ذلك شرف للقرآن ، فهو شرف للشهر الذى جمع بين طرفيه طائفة من غرر الكمالات ، فقد كان ميقاتاً لإنزال القرآن فى ليلة القدر ،

---

(١) سورة البقــرة ، الآية ١٨٥

(٢) سورة النور ، الآيات ٤٦ — ٥٠

ليلة اصطفاء الرحمة المهداة ، والنعمة المسداة ، وإرساله رحمة للعالمين ، وليلة ميلاد أمة ، هى بفضل الله ، خير أمة أخرجت للناس ، لا لأنها فى بلد من البلاد ، ولا لأنها فرع دوحة مكارم ، تربو على التعداد ، ولكن كما قال رب العالمين : « كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله .. »[1] .

وناهيك بشرف الصوم الذى جعله الله له — وكل العبادات له سبحانه — فقد قال : (كل عمل ابن آدم له إلا الصوم فإنه لى وأنا أجزى به ...) متفق عليه .

إن الله جعل شهر رمضان ميقاتاً لهذه العبادة التى فرضها فى آيات لم تكرر فى كتاب الله ، بعد أن قال تعالى فى سورة البقرة : « يأيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون * أياماً معدودات ، فمن كان منكم مريضاً أو على سفر فعدة من أيام أخر ، وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين فمن تطوع خيراً فهو خير له وأن تصوموا خير لكم إن كنتم تعلمون * شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان فمن شهد منكم الشهر فليصمه ومن كان مريضاً أو على سفر فعدة من أيام أخر ، يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر ولتكملوا العدة ولتكبروا الله على ما هداكم ولعلكم تشكرون * وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان فليستجيبوا لى وليؤمنوا بى لعلهم يرشدون » .

فلنتدبرها ، لنعرف أنفسنا فى نورها ، ولنخض فى مراميها إلى كمال الإيمان وعز التقوى وشرف المهتدين .

---

(١) سورة آل عمران ، الآية ١١٠

موجبات رحمة الله

١ — فاستمعوا له وأنصتوا :

إن من حق القرآن الكريم أن تمنحه الأمة الوارثة .. فى أقل القليل، غاية إصغائها ، ويبلغ هذا الحق مداه حين يكون أمر الله فى مثل قوله تعالى : « وإذا قرئ القرآن فاستمعوا له وأنصتوا لعلكم ترحمون »[١] .

حتى يتأهل المؤمنون بالاستماع ،وما استتبع من إنصات، يعنى إنعام النظر فيما نسمع ، إلى المستوى الذى يفيض الله عليهم من أسرار كتابه، حوافظ دينهم ودنياهم على سواء .

ولقد أبصر من رأوا الآية على عمومها فى وجوب الاستماع والإنصات للقرآن، وأنها ليست فى خطبة الجمعة، إذ الآية مكية، ولم يكن بمكة خطبة ولا جمعة كما قال أوائلنا رضوان الله عليهم ، والإمام القرطبى يورد أقوال العلماء فى ذلك ، ويرجح قول من قالوا بعموم منطوق الآية ، وهو عموم يجاوز عندى حدود ما قاله الإمام الطبرى عن سعيد بن جبير أنها فى الإنصات يوم الأضحى ويوم الفطر ويوم الجمعة وفيما يجهر به الإمام . ويشهد لذلك الذى رأيته سبب نزول الآية ، فقد قالوا :كان المشركون يأتون رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا صلى، فيقول بعضهم لبعض بمكة : « لا تسمعوا لهذا القرآن والغَـوْا فيه »[٢] .

« فأنزل الله عز وجل: « وإذا قرئ القرآن فاستمعوا له وأنصتوا »[٣].

---

(١) سورة الأعراف ، الآية ٢٠٤ (٢) سورة فصلت ، الآية ٢٦
(٣) سورة الأعراف ، الآية ٢٠٤

إن ذلك حق القرآن بكل حال فى الصلاة وخارجها حتى نفهم مراميه، ونعمل بمقتضى ما فهمنا منه، ولا يكون كتاب الله حين يتلوه تالٍ أو يجهر به قارئ مما يستوجب به المنصرفون عنه أن يكونوا بين من قال فيهم رب العالمين من قول مصطفاه : « وقال الرسول يارب إن قومى اتخذوا هذا القرآن مهجوراً »(١) .

وحتى لايفضلهم من الجن من قال الله فيهم : « وإذ صرفنا إليك نفراً من الجن يستمعون القرآن، فلما حضروه قالوا أنصتوا ، فلما قضى ولوا إلى قومهم منذرين * قالوا يا قومنا »(٢) .

إن الانصرف عن القرآن الكريم ، والغفلة عن تدبره، ليست من سمات أهل الإيمان، وإنما هى وساوس ودسائس يقذفها الشيطان فى نفوس كثيرين لم يأخذوا أنفسهم بقول الله لمصطفاه : « فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم »(٣) .

فالآية وإن كانت خطاباً ربانياً للنبى صلى الله عليه وسلم ، فإنها تعليم كذلك لأمته ، وهم إن جردوا حواسهم ومشاعرهم من شواغل النفس ، وأقبلوا على كلام ربهم راغبين ، كانوا أهلا لحفظ الله الذى يعقب هذه الآية بقوله تعالى : « إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون * إنما سلطانه على الذين يتلونه والذين هم به مشركون »(٤) .

إن الآيات وثيقة الاتصال بقوله تعالى : « ونزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء »(٥) .

وقوله تعالى : « مافرطنا فى الكتاب من شيء »(٦) .

---

(١) سورة الفرقان ، الآية ٣٠
(٢) سورة الأحقاف ، الآيتان ٣٩ و ٣٠
(٣) سورة النحل ، الآية ٩٨
(٤) سورة النحل ، الآيتان ٩٩ و ١٠٠
(٥) سورة النحل ، الآية ٨٩
(٦) سورة الأنعام ، الآية ٣٨

٢ — المؤمن الحق :

ومن رزقه الله تبين ما أراد من كتابه الجامع المستوعب لأمهات الفضائل ومعالى الأمور ، كان مؤمناً حقاً ، مهتدياً فى نفسه ، هادياً غيره إلى الخير بحاله قبل أقواله .

وما أسعد المؤمن وهو يجرد لله ولاءه ، ويمنح القرآن إصغاءه ، فإذا استعاذ بالله من عدوه أعاذه وهداه سبله ، ومنحه مناه وأمله :
« ومن يعتصم بالله فقد هدى إلى صراط مستقيم »[1] .

وهل تعنى الاستعاذة بالله إلا اليقين فى حوله وطوله ، وقوته وقدرته جل شأنه ، على سوق الخير ، ودفع الشر ، وقهر الباطل ؟

وهل تعنى الاستعاذه بالله مع ذلك غير الثقة فى ألوهيته ، وصمدانيته ، ووحمته ، والولد يلوذ بأبيه ، ويفزع إلى حماه إذا هرب ممن واجهه بمكروه ، وأين قوة المخلوق من قوة الخالق ؟! .

٣ — مثال دال :

وقد قال شيخ لتلميذه : ماذا تفعل إذا مررت بقطيع غنم فى بادية فنبحك كلبه ، وقطع مسيرك ؟ قال : أرفع عليه العصا .. فعاد يسأله : فإذا ارعوى الكلب ثم عاد ينبحك ويعترض طريقك ؟ قال : أرفع العصا .. فقال الشيخ : يا بنى ، ذلك شيء يطول ، ولو أنك عمدت من أول الأمر إلى الراعى ، لرد عنك كلبه ومضيت إلى غايتك آمناً .. وكذلك يأمن المكاره من استعاذ بالله واستهداه !!

إن الدنيا كلها لا تعصم من الله ، والله يعصمك من الناس ، ومن مزعجات الحياة وحده ، ولقد كان معلم الناس الخير صلوات الله عليه

---

(١) سورة آل عمران ، الآية ١٠١

يتعوذ بالله بكل حال ، ويتعوذ بقل هو الله أحد .. السورة ، وبالمعوذتين .
وقد روى مسلم رحمه الله فى صحيحه بسنده عن عقبة بن عامر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (ألم تر آيات أنزلت الليلة لم ير مثلهن قط؟ أعوذ برب الفلق ، أعوذ برب الناس) .

وقد أخرج الترمذى والنسائى وأبو داود عن عبد الله بن حبيب قال : خرجنا فى ليلة مطر وظلمة ، نطلب النبى صلى الله عليه وسلم ليصلى لنا ، فأدركناه ! فقال : قل ، فلم أقل شيئاً ، ثم قال : قل ، فلم أقل شيئاً ، ثم قال : قل : قلت : يارسول الله ما أقول؟ قال : قل « قل هو الله أحد » والمعوذتين حين تمسى ، وحين تصبح ، ثلاث مرات ، تكفيك من كل شىء) .

وكان صلوات الله عليه يقول : (أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، وأعوذ بكلمات الله التامة) .

وقوله صلى الله عليه وسلم : قل : « قل هو الله أحد .. وقل أعوذ برب الفلق .. وقل أعوذ برب الناس » شهادة التزام لما قاله الله تعالى .

وقد روى الإمام البخارى بسنده عن زرّ بن حبيش قال : سألت أُبىّ بن كعب عن المعوّذتين ، فقال : سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : قيل لى فقلت ، فنحن نقول كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم .

٤ — التزام القرآن كما بلغه النبى :

والمؤمن لا يقدم ولا يؤخر ، ولا يتقوّل على الله غير ما قال ، ولا يقبل لعب لاعب ، ولا باطل مبطل ، كائناً من كان فى كتاب الله تعالى ، فالنبى صلى الله عليه وسلم يقول : قيل لى قل فقلت ، إذ ليس له صلوات الله وسلامه عليه فى القرآن إلا بلاغه بلفظه وبما أراد الله من معناه ، لا أنه هو أنشأه من قبل نفسه ، بل هو المبلغ له عن الله ، والبلاغ التام هو حال الصادق الأمين الذى شهد الله له بذلك فى قوله : « ولو تقوّل علينا بعض الأقاويل *

لأخذنا منه باليمين * ثم لقطعنا منه الوتين * فما منكم من أحد عنه حاجزين»(١).

وما روى أحد ممن خالفوه ، أن شيئاً من ذلك كان !.

يقول الإمام ابن قيم الجوزية : (وهذا هو المعنى الذى أشار إليه النبى صلى الله عليه وسلم بقوله : (قيل لى فقلت ، أى أنى لست مبتدئاً ، بل أنا مبلغ ، أقول كما يقال لى ، وأبلغ كلام ربى كما أنزله إلىّ ، فصلوات الله عليه ، لقد بلغ الرسالة وأدى الأمانة ، وقال كما قيل له ، فكفانا وشفانا) .

أجل ، وتمت نعمة الله علينا بالقرآن ، حين آثر الرسول الرفيق الأعلى وأجاب رباً دعاه ، وما على الأسوياء إلا أن يتدبروا القرآن ، ويلتزموا ما وهبهم الله من هداياته وتوجيهاته فى العقيدة ، وحوافظ العبادة ، وجميل السلوك ، والتربية التى يكون بها الأخلاف على غرار الأسلاف ملائكة يسيرون على أرض الله ، وامتداداً لأولئك الذين قرنهم الله بمصطفاه فى مجال الإشادة به وبهم فى قوله : « محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعاً سجداً يبتغون فضلا من الله ورضواناً سيماهم فى وجوههم من أثر السجود ، ذلك مثلهم فى التوراة ومثلهم فى الإنجيل ، كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه ، يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار ، وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجراً عظيما »(٢) .

إنها الأمة المتماسكة المترابطة التى أخذت لتشابكها مدداً من ترابط القرآن الكريم مبنى ومعنى ، إطاراً ومحتوى ، حين لم تعرفه مُذَهَّباً ومُعَلَّباً ، ومخطوطاً بخطوط مختلفات ورسوم حيوانات أو زهرات ، ولم يكن كصالح فى ثمود ، أو — كما قيل — مصحف فى كف زنديق .

---

(١) سورة الحاقة ، الآيات ٤٤ — ٤٧

(٢) سورة الفتح ، الآية ٢٩

يقول أبو أمامة الباهلى : (اقرأوا القرآن ولا تغرّنكم هذه المصاحف المعلقة ، فإن الله لا يعذب قلباً هو وعاء القرآن) .

وقال ابن مسعود : (إذا أردتم العلم فاقرأوا القرآن ، فإن فيه علم الأولين والآخرين) ، وهو الذى قال : (لو ضاع منى عقال بعير لوجدته فى كتاب الله) ، وهى كلمة أيسر ما تعنيه أن الذين يصدق أخذهم للقرآن يهديهم الله سبل الخير جميعاً .

ومن كلماته رضى الله عنه : (لايسأل أحدكم عن نفسه إلا القرآن ، فإن كان يحب القرآن ، فإنه يحب الله تعالى ويحب رسوله صلى الله عليه وسلم) .

ذلك هو (المجتمع) الذى رضى الله أهله أسوة حسنة .

فهل نتأهل بالقرآن لنكون أهلا لرحمة الله .

الفصل الثالث

- أسمـــاء القرآن فى القرآن .
- القرآن ودواعى خلوده .
- القرآن جماع الفضائل .
- إنه النبي وحـــده .
- من أى قرّاء القرآن أنت ؟

أسماء القرآن فى القرآن

إن أسماء الله تعالى التى تطالعنا فى آيات ذوات عدد من كتابه عز وجل، والتى يقول فيها سبحانه : « ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها »[1] .

شاهد كمال الله وجلاله ، وأنه موصوف بكل كمال ، منزه عن كل نقص، وكذلك تُعرب أسماء النبى صلى الله عليه وسلم ونعوته وسماته وتصرفاته عن عظيم ما أراد الحق بقوله تعالى : « وإنك لعلى خلق عظيم »[2] .

ولقد أخذ أوائلنا من ذلك قاعدتهم ، التى تكاد تضطرد (إن تعدد الأسماء يدل على شرف المسمى) ، وهو يدل على الزيادة فى الأمر بكل حال .. وتطالعك أسماء القرآن فى القرآن — كما مر بعضها بين يديك — دلالة على شرف كتاب الله تعالى، ولقد بلغت فى إحصاء بعض المتأخرين ستة وأربعين اسماً ، وأشار إلى ما ذكره الإمام الزركشى فى كتابه (البرهان فى علوم القرآن) أنها خمسة وخمسون اسماً، والخطب فى ذلك هين، والخلاف محتمل، فبعض صفات القرآن عدت عند من زادوا فى الأسماء ، ومهما يكن من شىء فإنها أسماء وصفات لكلام الله الحكيم ، تزيدنا به علماً ، وعليه حرصاً، وله تفهماً ، والتزاماً ، وأود أن نلتقى على سرد عجلان لتلكم الأسماء ، مرتبة بحسب كثرتها وقلتها ترتيباً تنازلياً ، بدون شرح أو تعليق ، ففى مجرد ذكرها — إلى حين — غنية وبلاغ لقوم يعقلون .

فلقد سمى الله القرآن فى القرآن (منزلا وتنزيلا) فى اثنين وأربعين ومائة

---

(١) سورة الأعراف ، الآية ١٨٠ (٢) سورة القلم ، الآية ٥

آية ، فى مثل قول الله تعالى : « طه * ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى * إلا تذكرة لمن يخشى * تنزيلا ممن خلق الأرض والسموات العلى »[١] .

وقوله : « تنزيل العزيز الرحيم »[٢] .

وقوله : « وإنه لتنزيل رب العالمين »[٣] .

وقوله : « والذين آتيناهم الكتاب يعلمون أنه منزل من ربك بالحق »[٤] .

ومادة (التنزيل) و (منزل) ومشتقاتها ، فيها معنى تنجيمه الضرورى لكونه هدى للمتقين ، ولله ولكلماته الفضل والمنة ، فاسم (التنزيل) أشهر أسماء القرآن الكريم .

— وسمى الله القرآن « آيات » فى مائة وثلاثين موضعاً ، فى قوله تعالى :

« هو الذى ينزل على عبده آيات بينات »[٥] .

« تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق »[٦] .

— وسماه سبحانه كتاباً ، فى سبع وسبعين آية ، فى مثل قوله تعالى :

« ألم * ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين »[٧] .

وقوله : « إن الذين يتلون كتاب الله وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم سراً وعلانية ، يرجون تجارة لن تبور »[٨] .

وتأمل قوله تعالى : « ذلك الكتاب » يعطى من التنويه بأمر القرآن ما هو أحق به وأهله ، مما يتميز به على ما أوتى موسى الكليم عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام ، حيث يقول تعالى : « وآتينا موسى الكتاب وجعلناه هدى لبنى إسرائيل »[٩] .

(١) سورة طـه ، الآيات ١ — ٤
(٢) سورة يس ، الآية ٥
(٣) سورة الشعراء ، الآية ١٩٢
(٤) سورة الأنعام ، الآية ١١٤
(٥) سورة الحديد ، الآية ٩
(٦) سورة البقرة ، الآية ٢٥٢
(٧) سورة البقرة ، الآيتان ١ و ٢
(٨) سورة فاطر ، الآية ٢٩
(٩) سورة الإسراء ، الآية ٢

أجل فالقرآن الكريم ، هدى للمتقين ، منذ أنزل وعبر القرون .

— وسماه (قرآناً) فى ثلاث وسبعين آية فى مثل قوله تعالى :

« وقرآناً فرقناه لتقرأه على الناس على مكث »[1] .

وننزله على مكث ، سبيل تدبره أسمى مرادات الله من إنزاله .

والقرآن على وزن الغفران ، مصدر مرادف للقراءة فى اللغة ، ثم انتقل من المعنى المصدرى فصار اسماً لكلام الله تعالى المنزل على النبى محمد صلى الله عليه وسلم ، من باب إطلاق المصدر على مفعوله ، فهو قرآن بمعنى مقروء ومتلوّ ، وذلك يعنى تماسكه وترابطه فى وحدة تأتلف ولا تختلف بحال ، وقال تعالى :

« ولقد صرّفنا فى هذا القرآن ليذكروا ومايزيدهم إلا نفورا »[2] .

وياويح من ضلوا الطريق إلى القرآن ، الذى يهدى للتى هى أقوم .

— وسماه الله (حقاً) فى إحدى وستين آية فى مثل قوله تعالى : « قل يأيها الناس قد جاءكم الحق من ربكم فمن اهتدى فإنما يهتدى لنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها وما أنا عليكم بوكيل »[3] .

« يأيها الناس قد جاءكم الرسول بالحق من ربكم فآمنوا خيراً لكم »[4] .

ومقتضى أن للقرآن حق ، أن يلتزمه العقلاء ، ويهتدوا به ..

« قل هل من شركائكم من يهدى إلى الحق ، قل الله يهدى للحق ، أفمن يهدى إلى الحق أحق أن يتبع أمن لا يهدى إلا أن يُهْدَى فما لكم كيف تحكمون »[5] .

— والقرآن الكريم (تذكرة وذكرى) فى خمس وخمسين آية ، منها قوله تعالى : « وهذا ذكر مبارك أنزلناه »[6] .

---

(١) سورة الإسراء ، الآية ١٠٦
(٢) سورة الإسراء ، الآية ٤١
(٣) سورة يونس ، الآية ١٠٨
(٤) سورة النساء ، الآية ١٧٠
(٥) سورة يونس ، الآية ٣٥
(٦) سورة الأنبياء ، الآية ٥٠

وقوله : « فذكر بالقرآن من يخاف وعيد »[١] .

« كلا إنه تذكرة * فمن شاء ذكره »[٢].

فهو الذكر نفسه ، والآمر بالذكر ، والمرغب فيه ، والذكر ضد الغفلة ، والموعظة هى المرادة من التذكير ، وتلاوة القرآن مع ذلك هى من أفضل ما يذكر به الذاكرون ربهم سبحانه :

« وإنه لتذكرة للمتقين »[٣] .

والنبى صلى الله عليه وسلم يقول : (هو حبل الله المتين ، وهو الذكر الحكيم وهو الصراط المستقيم) رواه أحمد وغيره .

— والقرآن الكريم (هدى) فى سبعة وأربعين موضعاً . قال تعالى :

« هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله »[٤].

« هذا بيان للناس وهدى وموعظة للمتقين »[٥] .

أما الهدى عموماً بمعانى الإعانة والبيان أو التوفيق فقد ذكره الله فى أكثر من ثلاثين ومائة آية :

« والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم »[٦]

— والقرآن (وحى) فى خمس وأربعين آية . قال تعالى :

« إن هو إلا وحى يوحى »[٧] .

وقال : « فاستمسك بالذى أوحى إليك »[٨] .

« واتبع ما أوحى إليك واصبر حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين »[٩].

---

(١) سورة ق ، الآية ٤٥

(٢) سورة المدثر ، الآيتان ٥٤ و ٥٥

(٣) سورة الحاقة ، الآية ٤٨

(٤) سورة الفتح ، الآية ٢٨

(٥) سورة آل عمران ، الآية ١٣٨

(٦) سورة البقرة ، الآية ٢١٣

(٧) سورة النجم ، الآية ٤

(٨) سورة الزخرف ، الآية ٤٣

(٩) سورة يونس ، الآية ١٠٩

والوحى : الإعلام فى خفاء .. لغة .. وهو فى الشرع : الإعلام بالشرع كما فى فتح البارى .

والنبى صلى الله عليه وسلم يقول فيما روى أبو هريرة رضى الله عنه : (ما من الأنبياء نبى إلا أعطى ما مثله آمن عليه البشر ، وإنما كان الذى أوتيته وحياً أوحاه الله إلىّ ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة) متفق عليه .

— وهو (صراط مستقيم) فى ثلاث وثلاثين آية ، وحسبنا منها : « اهدنا الصراط المستقيم »[1] .

وهو كتاب الله كما روى عن ابن مسعود ، والقرآن هو همزة الوصل بين الله وبين عابديه ، إذ هو قاعدة الإسلام ، وبلاغ الرسول صلى الله عليه وسلم إلى الناس ..

— والقرآن الكريم (تبيان وبينات ومبين) فى ثلاثين آية . قال تعالى : « إن الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى »[2] .
وقال : « لقد أنزلنا آيات بينات » .

— والقرآن (صدق ومصدق وتصديق) فى اثنتين وعشرين آية : « ومن أصدق من الله قيلا »[3]

— وهو مفصل (فصل) فى ثمان وعشرة آية :
« إنه لقول فصل »[4] واضح المعانى والدلالة .

— وهو (حديث) فى خمس عشرة آية :
« فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين »[5] .

— وهو (رحمة) فى خمس عشرة آية :
« هذا بصائر للناس وهدى ورحمة لقوم يوقنون »[6] .

---

(١) سورة الفاتحة ، الآية ٦
(٢) سورة البقرة ، الآية ١٥٩
(٣) سورة النساء ، الآية ١٢٢
(٤) سورة الطارق ، الآية ١٣
(٥) سورة الطور ، الآية ٣٤
(٦) سورة الجاثية ، الآية ٢٠

وسماه الله (قولا وقيلا) فى خمس عشرة آية ، وسماه (نوراً) فى ثنتى عشرة آية ، وهو كلام الله وكلماته ومشتقاتها فى ثنتى عشرة آية ، وهو (عربى) فى إحدى عشرة آية ، و(نذير) فى مثلها ، وهو (سورة) فى تسع آيات ، و (علم) فى مثلها ، وهو (مبشر وبشرى وبشير) فى مثلها ، و (محكم وحكيم) فى ثمان آيات .

وسماه الله (ديناً قيماً) فى سبع آيات و (قصصاً) فى مثلها .

وسماه (موعظة) فى خمس ، و (مباركاً) فى أربع ، و (فرقاناً) فى مثلها ، وسماه (بصائر) فى ثلاث آيات ، و (شفاء) فى مثلها ، و (بلاغاً) فى مثلها .

وسماه (أحسن الحديث) و (أحسن القصص) فى آيتين ، و(مثانى) فى مثلها ، و (نبأ عظيما) فى مثلها ، و (مجيداً) فى مثلها ، وسماه (روحاً) فى آيتين كذلك .

وسماه (برهاناً) و (قولا ثقيلا) و (قولا فصلا) و (حكمة بالغة) و (حكماً عربياً) و (حبل الله) و (زبوراً) و (بياناً) و (منادياً للإيمان) وهو ترجيح ابن جرير الطبرى بعد أن أورد من قالوا (القرآن) ومن قالوا (محمداً) صلى الله عليه وسلم . ثم قال : (لأن كثيراً ممن وصفهم بهذه الصفة فى هذه الآيات ليسوا ممن رأى النبى صلى الله عليه وسلم ، ولا عاينه، فسمعوا دعاءه إلى الله تبارك وتعالى ونداءه ولكنه (القرآن) ، وما زال القرآن وسيبقى ينادى طلاب الهدى وأولى النهى) .

إن القرآن الكريم سمى بهذه الأسماء كلها مرة واحدة وكذلك بقوله تعالى : « قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون »[1].

فلقد جاءت الآية بعد قوله تعالى : « يأيها الناس قد جاءتكم موعظة من ربكم وشفاء لما فى الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين »[2] .

(١) سورة يونس ، الآية ٥٨ (٢) سورة يونس ، الآية ٥٧

وكلها أسماء للقرآن كما علمت ..

إن القرآن فضل الله ورحمته حقاً ، ورحم الله الإمام ابن جرير فقد قال وهو ينظر الى ختام الآية : (هو خير مما يجمعون من الأموال والحرث والأنعام) .

ورضى الله عن أبى حفص عمر ، وقد خرج ومولى له ، إلى خراج العراق ؛ فجعل يعد الإبل ، فإذا هى أكثر ، فيقول عمر : الحمد لله تعالى ، وقال غلامه : هذا والله من فضل الله ورحمته . فقال عمر : كذبت ، ليس هذا هو الذى يقول الله فيه : « قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون »[1] .

إنه القرآن هبة الله لمن أراد أن يتذكر ويعتبر ويهتدى السبيل .

---

(١) سورة يونس ، الآية ٥٨

القرآن ودواعي خلوده

أنزل الله كتابه الكريم إلى مصطفاه صلى الله عليه وسلم ، مقرونة به دواعى بقائه وخلوده ، وإذا كانت المنارات العالية ترسل أضواءها فى الليالى المظلمة ، فتبدد سجف الظلام فى كل اتجاه ، فإن القرآن لا يقاس به غيره فى تأهله للهداية ، وقدرته على الأخذ بأيدى الحيرى — دائماً وبلا انقطاع — إلى سواء السبيل ، وكان ذلك شأنه منذ أتم الله بإنزاله النعمة على الذين أخذوا أنفسهم به ، وأقام به الحجة — وما تزال تقوم — على كل عاقل مدرك ، وإلى يوم الدين .

وذهب القرآن بخاصية لم يشاركه فيها ما تقدمه من كتب الله وكلماته إلى المرسلين ، صلوات الله وسلامه عليهم ، وهى عدته تعالى بحفظ كتابه ، على حين وكل حفظ ما تقدمه من كتب الله تعالى إلى أقوام ، فكان من أمرها ما كان « فما رعوها حق رعايتها »[1]. قال تعالى : « ومن الذين هادوا سماعون للكذب سماعون لقوم آخرين لم يأتوك ، يحرفون الكلم من بعد مواضعه يقولون إن أوتيتم هذا فخذوه وإن لم تؤتوه فاحذروا ، ومن يرد الله فتنته فلن تملك له من الله شيئاً ، أولئك الذين لم يرد الله أن يطهر قلوبهم لهم فى الدنيا خزى ولهم فى الآخرة عذاب عظيم »[2] .

وقال تعالى : « فبما نقضهم ميثاقهم لعنّاهم وجعلنا قلوبهم قاسية يحرّفون الكلم عن مواضعه .. »[3] .

---

(١) سورة الحديد ، الآية ٢٧
(٢) سورة المائدة ، الآية ٤١
(٣) سورة المائدة ، الآية ١٣

ورحم الله الشيخ محمد عبد الله دراز فقد قال : (وبقى القرآن محفوظاً فى حرز حريز ، إنجازاً لوعد الله الذى تكفل بحفظه ، حيث يقول : « إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون »[1] .

ولم يصبه ما أصاب الكتب من قبله من التحريف والتبديل وانقطاع السند، حيث لم يتكفل الله بحفظها ، بل وكلها إلى حفظ الناس فقال : « والربانيون والأحبار بما استحفظوا من كتاب الله »[2] ، أى بما طلب إليهم حفظه .

وأجاب رحمه الله عن تساؤل قد يخطر بالبال ، فى أعصار وأجيال ، وهو لماذا حفظ الله القرآن ولم يحفظ غيره من الكتب ؟! فقال : (إن سائر الكتب السماوية قد جيء بها على التوقيت ، لا التأبيد، وإن هذا القرآن جيء به مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيمناً عليه ، وكان جامعاً لما فيها من الحقائق الثابتة ، زائداً عليها ما شاء الله زيادته ، وكان ساداً مسدها ، ولم يكن شيء منها يسد مسده ، فقضى الله أن يبقى حجة إلى يوم القيامة، وإذا قضى الله أمراً يسر أسبابه ، وهو الحكيم العليم) . اهـ .

والكلمات وفيها وميض إيمان ، تؤكد حقيقة فضل القرآن ، وأن الله استحفظه نفسه .. وله الفضل والمنة .. وإنه ليواصل مسيرته فى الهداية إلى الله، وليحدد فى ضوئه من تنفذ أسراره وأنواره إلى أفئدتهم، ومن يقولون على مر العصور ما قال أوائلهم : « وقالوا قلوبنا فى أكنة مما تدعونا إليه وفى آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب »[3] .

وحجاب الله بشؤمهم أشد ..

« وإذا قرأت القرآن جعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجاباً

(١) سورة الحجر ، الآية ٤ (٢) سور المائدة ، الآية ٤٤

(٣) سورة فصلت ، الآية ٥

مستوراً * وجعلنا على قلوبهم أكنـة أن يفقهوه وفى آذانهم وقراً ، وإذا ذكرت ربك فى القرآن وحده ولّوْا على أدبارهم نفوراً »(١) .

إن الذين لاتأخذهم هدايات القرآن ، وحججه الدالة اليوم ، هم أحفاد أولئك الذين عنتهم تلك الآيات ، إنهم مرضى القلوب ، وليس لعلتهم القاتلة من علاج إلا القرآن وحقائقه ، ولقد فصل ابن قيم الجوزية رحمه الله فى كتابه (إغاثة اللهفان ج ١) أمراض القلب وأشفيته .. وهأنا أجمل لك من ذلك قوله : إن أمراض القلب إما شبهات ، وإما شهوات :

وقال : (جماع أمراض القلب هى أمراض الشبهات والشهوات ، والقرآن شفاء للنوعين ، ففيه من البينات والبراهين القطعية ما يبين الحق من الباطل ، فتزول أمراض الشبه المفسدة للعلم والتصور والإدراك بحيث يرى الأشياء على ماهى عليه ، وليس تحت أديم السماء كتاب متضمن للبراهين والآيات على المطالب العالية من التوحيد وإثبات الصفات ، وإثبات المعاد والنبوّات ورد النحل الباطلة والآراء الفاسدة .. مثل القرآن .

حتى قال رحمه الله : (وأما شفاؤه لمرض الشهوات : فذلك بما فيه من الحكمة والموعظة الحسنة ، بالترغيب والترهيب ، والتزهيد فى الدنيا ، والترغيب فى الآخرة ، والأمثال والقصص التى فيها أنواع العبر والاستبصار) . اهـ .

كان تميم الدارى رضى الله عنه من سروات الناس وأماجدهم إلى شرف الصحبة والحياة فى خير القرون ، ولقد صلى ليلة عند المقام فى بيت الله الحرام ، فلما بلغ من قراءته قول الله تعالى : « أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم ساء ما يحكمون »(٢) .

---

(١) سورة الإسراء ، الآيتان ٤٥ و ٤٦

(٢) سورة الجاثية ، الآية ٢١

جعل يبكى ، ويردد إلى الصباح : « ساء مايحكمون ، ساء مايحكمون ».

ولقد بلغها الفضيل بن عياض ، ففعلت به فعلها بتميم رضى الله عنهما ، وجعل يرددها ويبكى ويقول : (يا فضيل، ليت شعرى من أى الفريقين أنت ؟!) .

ورحم الله الإمام ابن القيم فقد ذكر طوائف من الناس نظروا فى كتاب الله تعالى فقال : (ومنهم من قال : إعجازه حصل بما فيه من نشاط القلوب الواعية وغير الواعية إليه ، وإقبالها بوجه المودة عليه ، واستجلاء طعم عذوبة ألفاظه ومعانيه ، وهشاشتها بما يردُ عليها من مبشراته المبهجة ، ومحذراته المزعجة ، وآياته المغلقة ، وأخباره الموفقة ، مع كثرة قرعه للأسماع ، وصدعه بما يخالف الطباع ، ومع ذلك فالقلوب مقبلة على أذكاره ، راغبة فى تكراره ، شجية عند سماع مزماره ، يجد ذلك منهم البرّ والفاجر ، والمؤمن والكافر .. قال الله تعالى : « الله نزّل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً مثانى تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ، ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله ، ذلك هدى الله يهدى به من يشاء ، ومن يضلل الله فما له من هاد »[١] .

وأورد ابن قيم الجوزية خبر نصرانى مر بقارئ ، فوقف يبكى ! فقيل له : مم بكاؤك ؟! قال : الشجا والنغم (هذا مبلغ علم الرجل حين سمع)[٢].

« بل كذبوا بما لم يحيطون بعلمه ولما يأتيهم تأويله ، كذلك كذب الذين من قبلهم ، فانظر كيف كان عاقبة الظالمين »[٣] .

والآية تذكر المؤمنين فى موقفى الرغبة والرهبة ، والرجاء والخوف، فقد مدحهم الله بذلك فقال : « تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفاً وطمعاً ومما رزقناهم ينفقون »[٤] .

---

(١) سورة الزمر ، الآية ٢٣
(٢) من كتاب (الفوائد) لابن القيم .
(٣) سورة يونس ، الآية ٣٩
(٤) سورة السجدة ، الآية ١٦

وقال : « أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب ويرجون رحمته ويخافون عذابه ، إن عذاب ربك كان محذوراً »(١) .

والمؤمنون تطمئن قلوبهم بذكر الله ، كما وصفهم من خلقهم ، تباركت آلاؤه فقال : « الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ، ألا بذكر الله تطمئن القلوب »(٢) .

أى تطمئن بذكر فضله وإنعامه ، كما توجل بذكر عدله وانتقامه ، كما قال ابن عباس رضى الله عنهما : (ومن أفاد من هدايات القرآن ، رجاء الله بالقيام بأمره ، والخوف منه ، باتقاء موجبات سخطه ، كان على صراط مستقيم) .

ولقد قال سهيل بن عبد الله : (الرجاء والخوف زمانان على الإنسان، فإذا استويا استقامت أحواله ، وإن رجع أحدهما بطل الآخر ، فاللهم اهدنا بآياتك الصراط المستقيم) .

« صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين »(٣).

---

(١) سورة الإسراء ، الآية ٥٧ (٢) سورة الرعد ، الآية ٢٨
(٣) سورة الفاتحة ، الآية ٧

القرآن جماع الفضائل

القرآن الكريم فى متناول الجميع ، وإن كنا ندعو الله مخلصين أن يقيض لكتابه أمة من أممنا ، أو جماعة من الجماعات فيها ، لتقوم بإخلاص وصدق على أمر المصاحف ، فتجمع طبعات كثيرة متداولة ، سلط الله عليها — وهو الذى تكفل بحفظ كتابه — الأضواء لتوقف سيرها ، ولتخطط هذه الأمة أو تلك الجماعة لطبعات كتلك التى عرفناها منذ أكثر من ثلثى قرن ، وعرفها غيرنا كذلك جيدة الطبع ، أهلا للثقة فى كل ما يحفها ، ويحيط بها .

والقرآن الكريم على ما هو عليه من سور تبدأ بفاتحة الكتاب ، وتنتهى بالمعوذتين ، وتتصل كل سورة بما تقدمها وما لحق بها ، وترتبط على نحو تكاد تكون به وحدة واحدة ، وكذلك تكون الآيات فى هذه السور ، بل الكلمات فى تلكم الآيات ، حيث تؤلفها وتتآلف فيها إلى المدى الذى لا يتحقق أيسره إذا وضعت كلمة مكان كلمة وإن كانت فى معناها وعلى مبناها ، وحاول ذلك وأفرغ فيه وسعه الذين لهم تمرس وعلم باللغة العربية التى اختارها الله وعاء لكتابه الذى أنزله على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم مصداق قوله تعالى : « وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم »(١) .

فزادتهم محاولتهم إيماناً على إيمان بأنه القرآن ! !

ذلك الذى يتراءى لكل ناظر فى القرآن الكريم وسوره وآياته وكلماته شاهد من شواهد عرفها الناس ، وسيعرفون أضعافها وحكمتها ، وتدرك الأفهام عبر الأيام ، صدق عدة الله تعالى فى قوله : « سنريهم آياتنا فى

---

(١) سورة إبراهيم ، الآية ٤

الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق .. »(١). وقوله : « وقل الحمد لله سيريكم آياته فتعرفونها وما ربك بغافل عما تعملون »(٢) .

إنها شواهد ناطقة بمصدر هذا القرآن ، وصدق نسبته إلى الله، وتوفره ووفائه بكل ما يريده الله من عباده ، وما يريده لهم من أمن وعافية، وسعة ورفاهية ، ونهوض فى حدود الطاقة والإمكان ، بمقتضيات الاستخلاف والتسامى ، وبيان أسباب كل ذلك ووسائله لتتم منة الله الذى يقول : « ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا »(٣) .

« هو الذى خلق لكم ما فى الأرض جميعاً »(٤) .

« الله الذى خلق السموات والأرض وأنزل من السماء ماءً فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم وسخر لكم الفلك لتجرى فى البحر بأمره وسخر لكم الأنهار * وسخر لكم الشمس والقمر دائبين وسخر لكم الليل والنهار * وآتاكم من كل ما سألتموه ، وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها ، إن الإنسان لظلوم كفار »(٥) .

ولا تكاد تخلو آية من آيات القرآن من فضائل لا فضيلة تؤخذ ، ومن أمور ينكرها العقل السليم حتى تحذر وتنبذ ..

ويوم علم أكثم بن صيفى حكيم العرب بما عاد به رسولاه إلى النبى صلى الله عليه وسلم من قول الله تعالى : « إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى ، وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون »(٦) .

---

(١) سورة فصلت ، الآية ٥٢
(٢) سورة النمل ، الآية ٩٣
(٣) سورة الإسراء ، الآية ٧٠
(٤) سورة البقرة ، الآية ٢٩
(٥) سورة إبراهيم ، الآيات ٣٢ — ٣٤
(٦) سورة النحل ، الآية ٩٠

وكان الرجل ما يزال على شركه ، لكن أنوار الآية بلغت من نفسه مبلغاً، ونفذ بعض نورها إلى قلبه ، فقال لقومه الذين حالوا دون أن يأتى محمداً صلى الله عليه وسلم ظناً منهم أن أكثم وهو حكيم العرب يأتيه غيره، ولا يأتى هو أحداً ، قال لقومه : (ياقوم أطيعونى واتبعوا ذلك الرجل، وكونوا باتباعه رءوساً قبل أن تكونوا أذناباً ، فوالله إن هذا الذى يدعو إليه محمد لو لم يكن ديناً لكان فى أخلاق الرجال حسناً) .

إنها آية واحدة من سورة النحل تؤلف سجل الفضائل والمناكر جميعاً، فما من فضيلة إلا وهى تندرج تحت ما أمر الله به من عدل وإحسان وبر ذى القربى ، وما من رذيلة إلا وهى لاتتجاوز ما نهى الله عنه من الفحشاء والمنكر والبغى .. ورضى الله عن أبى الحسن على بن أبى طالب فقد جعل العدل فى الإنصاف ، وفسر الإحسان بالتفضل ، وبسط ابن عطية ذلك فقال : (العدل هو كل مفروض من عقائد وشرائع فى أداء الأمانات وترك الظلم والإنصاف، والإحسان هو فعل كل مندوب إليه ، فمن الأشياء ماهو كله مندوب إليه ، ومنها ما هو فرض ، إلا أن حد الأجزاء منه داخل فى العدل ، والتكميل الزائد على الأجزاء داخل فى الإحسان) .

ومن كلام ابن العربى رحمه الله : (العدل بين العبد وبين ربه ، إيثار حقه تعالى على حظ نفسه ، وتقديم رضاه على هواه ، واجتناب الزواجر ، وامتثال الأوامر ، وأما العدل بينه وبين نفسه ، فمنعها مما فيه هلاكها . قال تعالى : « وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى * فإن الجنة هى المأوى »[1] .

ومن العدل مع النفس لزوم القناعة بكل حال ومعنى ، وأما العدل بينه وبين الخلق ، فبذل النصيحة وترك الخيانة فيما قل وكثر ، والإنصاف

(١) سورة النازعات ، الآيتان ٤٠ و ٤١

من نفسك لهم بكل وجه ، ولا يكون منك إساءة إلى أحد بقول ولافعل ، لا فى سر ولا فى علن ، والصبر على ما يصيبك منهم من البلوى ، وأقل ذلك الإنصاف وترك الأذى) .

ولا أسترسل فى الكلام عن الإحسان وإيتاء ذى القربى ، وهو طيب محبب ، ولا مع أمهات الرذائل فى الآية التى ختمها الله بقوله : « يعظكم لعلكم تذكرون » لأؤكد أن هدايات الله فى كتابه إيجابياً وتركاً ، أو أمراً ونهياً ، إنما هى عظات ربانية دافعة إلى الكمالات ، حاجزة عن سفساف الأمور ..

إن سور القرآن وآياته وكلماته هى الإطار المقدس لضروب التربية ، ووجوه التعليم ، والهداية التى ناط الله بها سعادة المؤمنين أفراداً وجماعات حين يترابطون ترابط سور القرآن ، ويتكاملون تكامل كلماته ، ويؤلفون مجتمع الخير على النحو الذى تؤلف به حروف القرآن الكلمات فى الآيات والسور جميعاً .

ولقد عرف العرب ، حتى والقرآن ينزل القصيدة والبيت والقافية ، وكان القرآن كلام الله جارياً فى مساره الربانى سورة وآية وفاصلة .....

والسورة من القرآن طائفة مستقلة من آياته ذات مطلع ومقطع ، أى لها بداية ولها نهاية ، وهو اصطلاح مأخوذ وملحوظ فيه سور المدينة الذى توضع فيه لبنة إلى جوار لبنة ، كما توضع الكلمات بعضها بجوار بعض مؤلفة الآيات التى تؤلف هى كذلك سور القرآن .

والآيات فى كتاب الله تعالى طائفة من الكلمات ، فيها مطلع كذلك ومقطع مندرجة فى سورة من القرآن على النحو الذى يعلن حكمة الله وعلمه ، وهذا المعنى الاصطلاحى لم يغب عنه مفهوم الآية فى اللغة ، فهى تطلق ويراد بها المعجزة كما فى قوله تعالى : « سل بنى إسرائيل كم آتيناهم من آية بينة »[1] .

---

(١) سورة البقرة ، الآية ٢١١

أى معجزة ظاهرة . ويراد بها العلامة ، كما فى قوله تعالى : « إن آية ملكه أن يأتيكم التابوت .. » الآية[١] .

وقد تطلق على العبرة ، كما فى قوله تعالى : « إن فى ذلك لآية »[٢] .

وتكررت مرات ، أى عبرة لمن يعتبر . وتطلق على الأمر العجيب كما فى قوله تعالى : « وجعلنا ابن مريم وأمه آية »[٣] .

وربما أطلقت على الجماعة ، كقولك : خرج القوم بآيتهم ، أى بجماعتهم ، أى أنهم لم يتركوا وراءهم أحداً ، وقد أطلقت كثيراً فى القرآن على البرهان والدليل ، كقوله تعالى : « ومن آياته الجوار فى البحر كالأعلام »[٤] .

أى من براهين قدرة الله وقوته وحكمته .

وحكمة الله بالغة فى مجىء القرآن آيات وسوراً تيسيراً على المسلمين ، لمعرفة الآيات التى يتم بها التحدى ، وتجزئ بها الصلاة ، ويتحدد بها وبالسورة الموضوع ، ولتتم منّة الله على رسوله وعلى المؤمنين بقوله : « لتقرأه على الناس على مكث »[٥] .

وذلك يتاح والآيات مفصلة ، والسور مستقلة بما أراد الله أن يتبينه المؤمنون من أغراضها وقضاياها ، ففى السورة جملة من الأغراض ، وعدد من القضايا والتوجيهات .

قال الشيخ محمد عبده رحمه الله : (إن القرآن لم يأت على طريقة المنشئين أو المؤلفين الذين يخصون كل طائفة من الكلام بموضوع معين ، ويسعونها فصلا أبواباً ، ولكن للقرآن أغراضاً يبرزها بصور مختلفة ، فكلما لاحت المناسبة لذكر شىء منها ، أو الاحتجاج عليه ، أو الدفاع عنه ، جاء به يجذب إليه الأذهان ويساوق خطرات القلوب مع مراعاة التناسق وحفظ الأسلوب البليغ) .

هذا كلام لا يصدق إلا فى كلام الله تعالى وحده .

---

(١) سورة البقرة ، الآية ٢٤٨ (٢) سورة الشعراء ، الآية ٥ (٣) سورة المؤمنون ، الآية ٥٠
(٤) سورة الشورى ، الآية ٣٢ (٥) سورة الإسراء ، الآية ١٠٦

انه النور وحده

القرآن الكريم كتاب الدين والدنيا ودستور العلم والعمل ، يوافى الأحياء بما لا يعوزهم بعده شيء ، فى قضايا العقيدة ، وكمال العبادة ومنهاج السلوك ، ويقدم أهدى العلاقات ، وأوثق الروابط والصلات التى تشد عرى الإخاء الحق بين الأفراد والأفراد ، وبينهم وبين الجماعات والشعوب .

« يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم إن الله عليم خبير »(١) .

والقرآن يحمل إلى هؤلاء وأولئك النور ، اليوم وغداً ، وإلى قيام الساعة ، كما حمله منذ أوحاه الله تعالى إلى مصطفاه صلوات الله عليه ، وناداهم بمثل قوله : « يأيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم وأنزلنا إليكم نوراً مبيناً * فأما الذين آمنوا بالله واعتصموا به فسيدخلهم فى رحمة منه وفضل ويهديهم إليه صراطاً مستقيماً »(٢) .

لقد هدى النبي صلى الله عليه وسلم به من الضلالة ، وعلم من الجهالة ، وأخرج به الناس بإذن ربهم من الظلمات إلى النور ، وهو النبي الأمى الذى علّمه الله ما لم يكن يعلم ، وامتن به علينا وعلى الناس فقال : « وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نوراً نهدى به من نشاء من عبادنا ، وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم * صراط الله الذى له ما فى السموات وما فى الأرض ، ألا إلى الله تصير الأمور »(٣) .

---

(١) سورة الحجرات ، الآية ١٣ — (٢) سورة النساء ، الآيتان ١٧٤ و ١٧٥
(٣) سورة الشورى ، الآيتان ٥٢ و ٥٣

فالقرآن ههنا روح ، وهو كما قال تعالى فى سورة غافر : « يلقى الروح من أمره » ، وإذا كانت الروح فى الكائن الحى هى ينبوع الحركة ، ومنطلق الخير والبركة ، أو ما يقابلهما ، حين يذهل الحى عن هدايات الله ، فإن القرآن الكريم روح ، وحياة من موت الجهل ، « أومن كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشى به فى الناس كمن مثله فى الظلمات ليس بخارج منها .. »[١] .

والإمام القرطبى رحمه الله يقول : (ويمكن أن يحمل قوله تعالى : « ويسألونك عن الروح »[٢] على القرآن أيضاً « قل الروح من أمر ربى » أى يسألونك من أين لك هذا القرآن ، قل إنه من أمر ربى أنزله على معجزاً) .

وذكر القرطبى هذه اللطيفة : كان مالك بن دينار يقول : (يا أهل القرآن ماذا زرع القرآن فى قلوبكم ، فإن القرآن ربيع القلوب ؛ كما أن الغيث ربيع الأرض) . ومن دعاء رسول الله : (أن تجعل القرآن ربيع قلبى ونور صدرى) .

والقرآن نور ، وكم عرف الناس أنواراً إلهية مصدرها الشمس والقمر والنجوم ، وأنواراً صناعية استخرجوها بما علمهم الله من القوى المادية .

ويغيب هذا النور بغياب الشمس ، وذهاب القمر ، وانطماس النجم ، وتعطل القوى ، ونفاد المواد أحياناً ، تطول أو تقصر ، فلا يقف دولاب الكون ولا تتعطل حركة الحياة على النحو الذى يشكل الكوارث ، أو يعنى النهاية .

وقد يغيض هذا النور من الأبصار ، ويمتحن الله بعض عباده فى الأعين الناظرة ، فلا يمنع ذلك الإنسان من أن يكون على مستوى من العطاء بما عوّضه الرحيم الكريم فى حواسه الأخرى ، فى البصيرة التى يقول الله فيها : « فإنها لاتعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور »[١] .

(١) سورة الأنعام ، الآية ١٢٢ (٢) سورة الإسراء ، الآية ٥٨
(٣) سورة الحج ، الآية ٧٦

وكم عرف الناس من علم ابن عباس، وكثيرين من الأئمة على كر العصور، وفى واقع حياة كل منا أقارب وزملاء ومعارف، حرموا من نور الإبصار، ومنحوا من القوى المدهشة فى حواسهم الأخرى ما يشهد برحمة الرحيم وكرم الكريم .

إن النور الموصول الممتد، هو نور القرآن ، إنه النور كله ، إنه النور وحده ، يتبين به المؤمن الأحكام ، ويعرف الحلال والحرام ، ويرى فيه الحياة على حقيقتها ، كما ضرب الله فيها الأمثال ، وبعض القصص ، بهداياته وعبره وعظاته، إنه نور القلوب ، والقلوب أمراء الأبدان ، وحين يكون نورها القرآن ، تكون أوعية إيمان ، وينابيع صلاح للإنسان ..

« أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه ، فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله ، أولئك فى ضلال مبين »[١] .

إن القرآن الكريم كلام من ليس كمثله شيء ، فهو — كما قال الإمام القرطبي — من نور ذاته، عز وجل ، ولولا أن الله تعالى جعل فى قلوب عباده من القوة على حَمْله ما جعل، ليتدبروه وليعتبروا به ، وليتذكروا ما فيه من طاعته وعبادته ، وأداء حقوقه وفرائضه ، لضعفت ولاندكت بثقله ، أو لتضعضعت له ، وأنى تطيقه ، والله — تعالى جده — يقول وقوله الحق : « لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله »[٢] .

فأين قوة القلوب من قوة الجبال ، ولكن الله تعالى رزق عباده من القوة على حمل القرآن ما شاء أن يرزقهم فضلا منه ورحمة .

ولعلى ألحظ أن القلب المؤمن باعتباره سلطان الإنسان الذى كرمه الرحمن ، وسخر له ما فى السموات وما فى الأرض، ومنها الجبال الرواسى ، قادر بإقدار

(١) سورة الزمر ، الآية ٢٢ (٢) سورة الحشر ، الآية ٢١

ربه له على أن يؤثر فى كل شىء ،ويسخر إلى المدى الذى يشاءه الله ما حوله ومن حوله وما علا وما نزل .. وقد أبصر الذى قال :

إن هذى القلوب وهى دماء　　　قد تفلّ السيوف وهى حديد

« ربنا أتمم لنا نورنا واغفر لنا إنك على كل شىء قدير »[١] .

ولقد أورد القرطبى رحمه الله ما أسند إلى الحارث الأعور أن علياً رضوان الله عليه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : (ستكون فتن كقطع الليل المظلم . قلت : يا رسول الله، وما المخرج منها ؟ قال : كتاب الله تعالى ، فيه نبأ من قبلكم، وخبر مابعدكم ، وحكم ما بينكم، وهو الفصل ليس بالهزل ،من تركه من جبار قصمه الله، ومن ابتغى الهدى فى غيره أضله الله ، هو حبل الله المتين ، ونوره المبين ، والذكر الحكيم، وهو الصراط المستقيم ، وهو الذى لاتزيغ به الأهواء ، ولا تلتبس به الألسنة ولا تتشعب معه الآراء ، ولا يشبع منه العلماء ، ولا يمله الأتقياء ، ولا يخلق على كثرة الرد ، ولا تنقضى عجائبه ، وهو الذى لم تنته الجن إذ سمعته أن قالوا : « إنا سمعنا قرآناً عجباً * يهدى إلى الرشد فآمنا به »[٢]. علم علمه سبق ، ومن قال به صدق ، ومن حكم به عدل ، ومن عمل به أجر، ومن دعا إليه هدى إلى صراط مستقيم) أخرجه الترمذى فى صحيحه مع اختلاف فى بعض كلماته .

وقد ورد مايؤيده فى روايات أخرى،ومنها ما رواه ابن مسعود رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (إن هذا القرآن سبيل الله، وهو النور المبين، والشفاء النافع ، عصمة لمن تمسك به ، ونجاة لمن اتبعه، لا يعوج فيقوم ، ولا يزيغ فتستعتب ، ولاتنقضى عجائبه ، ولايخلق عن كثرة الرد ، فاتلوه فإن الله يأجركم على تلاوته بكل حرف عشر حسنات،

---

(١) سورة التحريم ، الآية ٨　　　(٢) سورة الجن ، الآيتان ١ و ٢

أما أنى لا أقول « ألم » حرف [1] ولا ألفين أحدكم واضعاً إحدى رجليه يدع أن يقرأ سورة البقرة ، فإن الشيطان يفرّ من البيت الذى تقرأ فيه سورة البقرة ، وإن أصفر البيوت من الخير البيت الصفير — أى الخالى — من كتاب الله) .

وكان أبو عبد الرحمن السلمى إذا ختم عليه الخاتم القرآن أجلسه بين يديه ووضع يده على رأسه ، وقال له : يا هذا ، اتق الله ، فما أعرف أحداً خيراً منك ، إن عملت بالذى علمت أن العمل بما علمنا من القرآن الكريم هو الخير لا خير وراءه ، والانصراف عن القرآن كلياً ، أو التلهى عنه بزخرف القول ولغو الحديث ، هو الضلال البعيد ..

« فبأى حديث بعد الله وآياته يؤمنون * ويل لكل أفاق أثيم * يسمع آيات الله تتلى عليه ثم يصرّ مستكبراً كأن لم يسمعها فبشره بعذاب أليم * وإذا علم من آياتنا شيئاً اتخذها هزواً ، أولئك لهم عذاب مهين * من ورائهم جهنم ولا يغنى عنهم ما كسبوا شيئاً ولا ما اتخذوا من دون الله أولياء ولهم عذاب عظيم * هذا هدى والذين كفروا بآيات ربهم لهم عذاب من رجز أليم » [2] .

إن القرآن الكريم آيات ربانية متلوة ، ودلالات من الآيات المجلوة فى الأنفس والآفاق ، على الإيمان بالله وروافده وثماره وآثاره ، من طاعات وسلوك هى مظهر التقوى ، وهى ثمرة الإيمان الذى لا يبالى به الله ، ولا يجاوز حدود الزعم ، حتى يثمر الصالحات ، وبذلك يكون القرآن قد واكب المؤمن منذ عمق فيه عقيدته وبين له عبادته ، وحدد سلوكه ومنهجه فى علاقته مع ربه ، وعلاقته مع نفسه وعلاقته مع عشيرته ، وعلاقته مع الناس أجمعين ، وبذلك يستمسك المؤمن بالعروة الوثقى ، ويأخذ السبب الأتقى :

« فاستمسك بالذى أوحى إليك ، إنك على صرط مستقيم » [3] .

---

(١) وفى رواية : « ولكن حرف ولام حرف وميم حرف ... » الحديث .
(٢) سورة الجاثية ، الآيات ٦ — ١١ (٣) سورة الزخرف ، الآية ٤٣

من أى قراء القرآن أنت ؟

تعاقب المرسلون على الهداية إلى الله تعالى ، إلى المدى الذى كانت تحيط به عقولهم وأفهامهم ، وبالقدر الذى يكفل لهم سعادة الدنيا ورضوان الله يوم يجمعهم عنده كما قال : « إن إلينا إيابهم * ثم إن علينا حسابهم »(١) .

قال تعالى : «شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً والذى أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تفرقوا فيه »(٢) .

ولقد حرص المرسلون على توكيد المعاد إلى الله ، فالعقلاء يدركون أنهم وجدوا ولا يرتابون فى فرصة الحياة ، وإن تخيَّل أقوام فنسبوا الوجود لغير الخلاق العظيم :

« وقالوا ما هى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر »(٣) .

وقرر وحده بأسلوب ربانى أنه الأول والآخر ، وأنه الخالق دون سواه فقال : « أم خلقوا من غير شىء أم هم الخالقون »(٤) .

والقرآن فى مجال الهداية إلى الله يفوق ما سواه من الكتب باعتباره كتاب الدين العام والرسالة الخاتمة ، والله تعالى يقول :

« ألم * ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين »(٥) .

وفى هذا التعبير إشعار بأن القرآن هو الكتاب الكامل ، الحافل ببراهينه وشواهده ، التى ينبغى أن تطيب بها الأنفس ، وتذعن لها العقول .

---

(١) سورة الغاشية ، الآيتان ٢٥ و ٢٦ (٢) سورة الشورى ، الآية ١٣

(٣) سورة الجاثية ، الآية ٢٤ (٤) سورة الطور ، الآية ٣٥

(٥) سورة البقرة ، الآيتان ١ و ٢

ورحم الله الشيخ على سرور الزنكلونى ، فهو يقول فى كتاب (الدعوة والدعاة) فى بيان الحكمة من إنزال الكتب وإرسال الرسل : (إن الغرض منها جمع الخلق على الحق ، والهداية إلى الصراط المستقيم ، الذى يبتدئ من الله منشىء العالم وينتهى اليه ...) .

ويقول : (والمقصود من الكتب السماوية فى كل زمان روحها ومعناها ، وهى متفقة كلها فى المبدأ والغاية ، وأنها هدى وشفاء ، إلا أن مراتب الهداية تختلف ، كما يختلف طريق العلاج إذا كثرت الأدواء ، ويزيد القرآن على هذه الكتب بأنه جاء معجزاً فى لفظه ومعناه لأسباب لا يمكن بدون علمها الوصول إلى سر إعجازه) .

ولقد لحظ — رحمه الله — أن الإعجاز لا يعنى الخفاء والألغاز ، ولكنه كان فى القرآن دلالة على الطور الفعلى المرتفع الذى جاوز الإنسان فى عهد الرسالة الخاتمة إليه حدود ما بلغ من سبقه من الناس فى حدود الرسالات المتقدمة ، لقد كانت منة الله على الإنسان أنه « علمه البيان » ، لكن التعليم درجات ومراحل ، والمعلم الكيس يعطى المتعلمين ما يتناسب ومستوياتهم العقلية ، وما يتفق ووسعهم وطاقاتهم فى الإدراك والتحصيل .

والمسلمون ومن لم يستجيبوا لله ورسوله قد أدركوا الكمال البشرى فى الإدراك والقدرة على تحصيل النافع مع الهدايات الدالة على الله ، وما شرع وأوجب من تكاليف وأوامر ونور تفيض الصفو ، وتبلغ بآخذيها سبل الرشاد ، والسعادة التى أوجبها الله تفضلا وكرماً لمن طلبها بهدايات الله فقال : « فمن تبع هداى فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون »[1] .

« فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى »[2] .

---

(١) سورة البقرة ، الآية ٣٨ (٢) سورة طـه ، الآية ١٢٣

وجاء القرآن الكريم ، كما قال تعالى : « ولقد صرَّفنا فى هذا القرآن ليذكروا وما يزيدهم إلا نفوراً »[١] :

وقوله : « ولقد صرفنا فى هذا القرآن من كل مثل فأبى أكثر الناس إلا كفوراً »[٢] .

وقوله : « ولقد صرفنا فى هذا القرآن للناس من كل مثل وكان الإنسان أكثر شىء جدلا »[٣] :

والمراد بهذا التصرف كما قال المفسرون : إما البيان والتكرير اللذين تسفر بهما الحقيقة وتثبت ، وإما المغايرة التى تفيد الحقيقة من عدة جهات ، وبغير أسلوب واحد :

قال الحسن رحمه الله : (يعنى الأمثال والعبر والحكم والمواعظ ، والأحكام والإعلام) .

وقال الثعلبى بسنده : لقوله تعالى « صرفنا » معنيان :

أحدهما أنه لم يجعله نوعاً واحداً، بل وعداً ووعيداً ،ومحكماًومتشابهاً، ونهياً وأمراً ، وناسخاً ومنسوخاً ، وأخباراً وأمثالا ، مثل تصريف الرياح صباً ودبوراً .. إلخ . وتصريف الأفعال بين الماضى والمستقبل والأمر والنهى .. إلخ .

والثانى : أنه لم ينزله جملة واحدة ، بل كما فى قوله تعالى : « وقرآناً فرقناه » . والأمران — كما يبدو — لايختلفان ، بل إنهما ليتفقان فى مراد الله من تذكر القرآن وتدبره ودوام الشغل به ، وذلك يلحظ فى قوله تعالى : « واذكروا ما فيه »[٤] .

كما يلحظ التدبير والتفهم من الآيات السابقة . ومن قوله تعالى : « ولقد

---

(١) سورة الإسراء ، الآية ٤١
(٢) سورة الإسراء ، الآية ٨٩
(٣) سورة الكهف ، الآية ٥٤
(٤) سورة البقرة ، الآية ٦٣

صرفناه بينهم ليذكروا »[١] بالتشديد .

وجلت منّة الله تعالى بقوله : « وكذلك أنزلناه قرآناً عربياً وصرفنا فيه من الوعيد لعلهم يتقون أو يحدث لهم ذكراً »[٢] .

فمن شأن القرآن الكريم أن ينفح من يصلون أنفسهم به ، بتقوى الله ومحبته وعدم الخلاف عن أمره ، وأن يقدم لهم العظات ، ويجعلهم على ذكر بالمثلات التى حاقت بالعصاة فى عصور الحياة المتقدمة .

يقول الأستاذ الإمام محمد عبده رحمه الله : (إن الاستهداء بالقرآن واجب على كل مكلف فى كل زمان ومكان ، فعلى كل قارئ أن يتلو القرآن بالتدبر ، وأن يطالب نفسه ، بفهمه والعمل به ، ولا شك أن كل من له معرفة — ولو قليلة — باللغة العربية ، فإنه يفهم من القرآن ما يهتدى به) ، وقرر أن الأمى أو الأعجمى ينبغى له أن يسأل القارئين أن يقرأوا له القرآن ويبينوا له معناه .

وذكر الشيخ رشيد رحمه الله أن الإمام قال فى هذا المقام : (إنه يجب على كل مسلم أن يقرأ القرآن أو يسمعه كله ولو مرة واحدة فى عمره ، فأقل فوائد هذا أن يأمن فى مستقبل أيامه من إنكار شىء منه إذا عرض عليه أو سمعه) .

إن القرآن يتعبّد بتلاوته حق تلاوته كما قال تعالى : « الذين آتيناهم الكتاب يتلونه حق تلاوته أولئك يؤمنون به »[٣] .

ولقد فسر الإمام محمد عبده « حق تلاوته » بفهم أسراره ، وفقه حكمة تشريعه ، وفائدة نوط التكليف به .. وأكد الأستاذ الإمام أن تعبّدنا بتلاوة القرآن ، ليس كل حق القرآن ، ولا ما ينبغى أن نقف من القرآن

---

(١) سورة الفرقان ، الآية ٥٠ (٢) سورة طـه ، الآية ١١٣
(٣) سورة البقـرة ، الآية ١٥١

عنده ، فقد أنزل الله القرآن « ليدبروا آياته وليتذكر أولو الألباب » : وأوجب مثل ذلك التدبر والتذكر للسنة النبوية ، فلقد أوتى النبى صلى الله عليه وسلم « القرآن ومثله معه » رواه البخارى .

وأمثال القرآن ، وهى كثيرة تطالع الناظر المتأمل لكلام الله تعالى بنعمة كبرى من الله لتعميق معانى القرآن الكريم فى أعماقنا ، وهى حجة على الذين لم يرعوها أسماعهم الواعية وقلوبهم المدركة . قال الإمام ابن قيم الجوزية فى (بدائع الفوائد) ج ٤ : (ضرب الأمثال فى القرآن يستفاد منه أمور : التذكير والوعظ والحث والزجر والاعتبار والتقرير ، وتقريب المراد للعقل وتصويره فى صورة المحسوس بحيث يكون نسبته للعقل كنسبة المحسوس إلى الحس . وقد تأتى أمثال القرآن مشتملة على بيان تفاوت الأجر على المدح والذم ، والثواب والعقاب ، وعلى تفخيم الأمر أو تحقيره ، وعلى تحقيق أمر وإبطال أمر ، والله أعلم) . اهـ .

إنها وحدة الأساليب القرآنية ، وضروب الإقناع الإلهى للناس ، والقرآن وهو حافل بالأمثال يضرب فيه النبى صلى الله عليه وسلم وفى قارئيه الأمثال فيما مضى بين يديك من أحاديثه ، وفيما ذكرنا من كلام علىّ وابن مسعود رضى الله عنهما .

وقد أخرج الإمام البخارى فى صحيحه بسنده عن أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : (مثل الذى يقرأ القرآن كالأترجّة طعمها طيب وريحها طيب ، والذى لا يقرأ القرآن كالثمرة طعمها طيب ولا ريح لها ، ومثل الفاجر الذى يقرأ القرآن كمثل الريحانة ريحها طيب وطعمها مر ، ومثل الفاجر الذى لا يقرأ القرآن كمثل الحنظلة طعمها مر ولا ريح لها) .

والحديث عند مسلم باختلاف يسير فى لفظه . والأترج معروف فى

بعض بلادنا ، ويطلق فى العراق على نوع من الفاكهة يشبه البرتقال ، رائحته عطرة وطعمه حلو ، ولونه يضرب إلى الصفرة ، وهو من الثمار التى لا يسارع إليها الفساد ، وإنها لبلاغة رسول الله الذى علمه مولاه ما لم يكن يعلم ، فالمؤمن الذى يقرأ القرآن بحقه من الترتيل والأدب والتدبر والعمل خير ألف مرة من الأترج الذى عرفت صفاته ، وأحطت بخصائصه وسماته .

وقد عرف الرسول الريحانة ، فريحها طيب وطعمها مر ، وكذلك الذى له بكل معصية ألف بعد أن شق الإيمان وخلص إلى الآثام — هو ولاريب ذلك الفاجر القارئ للقرآن ، يكون بقراءته للقرآن طيب المظهر ، خبيث المخبر ، لأنه ما انتفع بكتاب الله ولا اهتدى بهداه .

والتعبير فى الحديث بلفظ « يقرأ القرآن » على المضارع إشارة إلى تجدد القراءة والعمل بالقرآن وحفظه وتدبره قصداً إلى الاتعاظ والعبرة .

فهل نكون بالقرآن حفظاً وتفهماً وتدبراً والتزاماً كالأترجة ؟! .

إن ذلك إذا ما أردناه واستعنا عليه بالله ميسور سهل المدرك .

« وما تشاءون إلا أن يشاء الله رب العالمين »[1] .

---

(١) سورة التكوير ، الآية ٢٩

الفصل الرابع

- القرآن بين أعدائه وأوليائه .
- ناس من وراء الحدود يرون النور .
- نظرات فى القرآن ونظرات .
- النبي يضرب الأمثال .
- أدب تلاوة القرآن .

القرآن بين أعدائه وأوليائه

إن النظر إلى الإسلام وكتابه ورسوله بعين المقت ليس ابن اليوم ، ولكنه خلائق أقوام توارثوا الضيق والكيد والقول فى الإسلام وكتابه ورسوله بغير الحق ، وما يعيب الشمس إلا عيَّاب ، ولا يضر الحق نباح يصم الآذان فى آن بعد آن وبكل مكان ، فللحق المصير ، والله هو الحق المبين ، يحق الحق وهو خير الفاصلين :

« بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق »[1] .

وربما خفت صوت الحق ، واشمخر الباطل ، وشمخ بأنفه ، وذلك لايكون إلا كما قال الإمام علىّ بن أبى طالب : (لا قيام للباطل إلا فى غفلة الحق) .

والحق تعلو — لا محالة — رايته ، وتقوم دولته ، ويولى الباطل الأدبار ، ويلوذ بالفرار ، ليخلص للحق والخير المجال ، وللدكتور الشيخ محمد عبد الله دراز رحمه الله يقول : (سل التاريخ كم مرة تنكر الدهر لدول الإسلام ، وتسلط الكفار على المسلمين ، فأثخنوا فيهم القتل ، وأكرهوا أمماً منهم على الكفر ، وأحرقوا الكتب ، وهدموا المساجد ، وصنعوا ما كان يكفى القليل منه لضياع هذا القرآن ، كلاً أو بعضاً ، كما فعل بالكتب قبله ، لولا أن يد العناية تحرسه ؛ فبقى فى وسط هذه المعامع ، رافعاً راياته وأعلامه ، حافظاً آياته وأحكامه) .

---

(١) سورة الأنبياء ، الآية ١٨

بل اسأل صحف الأخبار اليومية : كم من القناطير المقنطرة من الذهب والفضة تنفق فى كل عام لمحو هـذا القرآن ، وصـدّ الناس عن الإسـلام بالتضليل والبهتان والخداع والإغراء ، ثم لا يظفر أهلها من وراء ذلك إلا بما قال الله تعالى : « إن الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدّوا عن سبيل الله فسينفقونها ثم تكون عليهم حسرة ثم يغلبـون والذين كفروا إلى جهنم يحشرون »(١) .

إن هذا الذى قاله الشيخ دراز — طيب الله فى الملأ الأعلى روحه ونور ضريحه — إن كان حديثاً عن الماضى فهو ما يزال غاية شعوب وأمم ودول كبرى تنعم بخيرات بلاد الإسـلام ، وطوائف وجماعات تعيش بيننا ، وتستظل من إنسانيتنا والتزامنا بوصايا ديننا فيهم بظل ممدود ، ويستثمرون سماحة الإسلام وأهله فى مضاعفـة مكايدهم وبث دواعى الفتنة فى الدين ومصدريه الكتاب والسنة ، وتاريخ أوائلنا فى المجتمع الذى يؤويهم ويتقى الله أهله فيهم ، وتطمعهم هذه السماحة والمياسرة ، ناسين أن لكل شيء حداً يقف عنده ، وأن الأمر إن جاوز مداه انقلب حتماً إلى ضده ، ولله أوس آخرون وخزرج ..

« يأيها الذين آمنوا من يرتدّ منكم عن دينه فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه ، أذلة على المؤمنين ، أعزة على الكفار ، يجاهدون فى سبيل الله ولا يخافون لومة لائم ، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ، والله واسع عليم »(٢) .

« ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا ، ومن يرتدد منكم عن دينه فيمت وهو كافر ، فأولئك حبطت أعمالهم فى الدنيا والآخرة وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون »(٣) .

---

(١) سورة الأنفال ، الآية ٣٦ (٢) سورة المائدة ، الآية ٥٤
(٣) سورة البقرة ، الآية ٢١٧

كانت تلك أمانى المشركين والمنافقين : « ودُّوا لو تكفرون كما كفروا فتكونون سواء فلا تتخذوا منهم أولياء حتى يهاجروا فى سبيل الله .. »[١] .

والله تعالى يقول : « ودَّ كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفاراً حسداً من عند أنفسهم »[٢] .

فهم يتمنون أن تزول عنا أجلّ نعمة أنعمها الله علينا بنبينا محمد صلى الله عليه وسلم ، واتباع رسالته ، وهى نعم ينادى الله إليها الأسوياء ، ويبلغ صوتها شتى الأنحاء .

« قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله ، فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون »[٣] .

وتمنى زوال نعمة عن الغير تتسع لك وله ، وتتاح لطلاب الخير ، أين كانوا نقص فى الدين ، وعمى فى البصائر ، وسفه فى العقول ، وسقوط فى الهمم ، وإخلاد إلى الهوى المطاع .

« ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله »[٤] .

« أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله فقد آتينا آل إبراهيم الكتاب والحكمة وآتيناهم ملكاً عظيما * فمنهم من آمن به ومنهم من صدَّ عنه وكفى بجهنم سعيراً »[٥] .

وأمطر الله شآبيب رحمته على جدث الشيخ دراز ، فلقد ختم كلماته السابقة بتقرير حقيقة أن كيد المبطلين منقض ، وأن الحق باق وطيد الأركان

---

(١) سورة النساء ، الآية ٨٩
(٢) سورة البقرة ، الآية ١٠٩
(٣) سورة آل عمران ، الآية ٦٤
(٤) سورة القصص ، الآية ٥٠
(٥) سورة النساء ، الآيتان ٥٤ و ٥٥

إلى آخر الزمان ، فهو يقول : (ذلك بأن الذى يمسكه — أى القرآن — أن يزول ، هو الذى يمسك السموات والأرض أن تزولا) . اه .

إن القرآن كلام الله والله تعالى هو الأول والآخر :

« كل شيء هالك إلا وجهه ، له الحكم وإليه ترجعون »[١] .

وكلام الله باق ببقائه ، فيه أمره ونهيه وخبره ونافذ قضائه ، وإذا نسى الغافلون أن الله حافظ كتابه ، وحسبكم نظرة فيما أوردت السنة المطهرة من عناية الله بكلامه على النحو الذى بدا فى تلقى الرسول له ، وحفاوته واستبشاره بجبريل عليهما السلام كلما جاء النبى بأقساط منه وآيات ، وحرص الرسول نفسه على أن يحفظ كلماته قبل أن ينتهى جبريل من تلاوة ما نزل به منه ، حتى طمأن الله مصطفاه إلى أنه يدبر له الأمر ، فما عليه إلا أن يسمع ما يوحى إليه ، وسيجد نفسه بعد وقد حفظ ما أدى الروح الأمين ، وفهم معناه ، وأطلق الله بقراءته لسانه .

وكان صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم على قدم النبى فى حفظ القرآن والحرص على تلاوته والتنافس فى ذلك ، عرفاناً منهم بقدر كلام الله ، ويتفاضلون فيما بينهم بمقدار ما يحفظون ، ويفاخرون بأنهم ما كانوا يجاوزون ما يحفظون إلى جديد ما يوحى إلى رسول الله حتى يفهموه ويعملوا به ، فجمع الله لهم بذلك بين العلم والعمل ، ويا لها من عناية كان يزكيها فيهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو يبلغهم ما أنزل إليهم من ربهم ، ويبعث إلى نازح الدار منهم من يعلمهم ويقرئهم ، فقد بعث مصعب بن عمير سفير الإسلام الأول إلى المدينة قبل الهجرة مقرئاً ومعلماً وداعياً إلى الله ، وبعث عبد الله بن أم مكتوم إماماً للصلاة .

---

(١) سورة القصص ، الآية ٨٨

قال الإمام ابن الجوزى : ثم إن الاعتماد فى نقل القرآن على حفظ القلوب والصدور ، لا على المصاحف والكتب ، وهذه أشرف خصيصة من الله تعالى لهذه الأمة) . واستظهر بحديث أخرجه مسلم وفيه : (ومنزل — أى الله — عليك كتاباً لا يغسله الماء ، تقرأه نائماً ويقظان (أى لا يحتاج فى حفظه إلى صحيفة تغسل بالماء ، بل يقرأ بكل حال ، وصفة المؤمنين كما قال عنهم : (أناجيلهم قلوبهم) .

على هذا النحو جمع القرآن فى الصدور ، ودوّن فى السطور ، على عهد رسول الله ، وعلى عهد أبى بكر ، وعلى عهد عثمان ، فى الطور الذى أخذ به القرآن اللمسة الأخيرة التى بقى عليها ويبقى آية الله فى الهداية والتوجيه كما أراد الله .

ناس من وراء الحدود يرون النور

إن ناساً من غير المسلمين عرفوا للقرآن الكريم قدره ، وهم يرون فيه من الحق والصدق والعمق والاستيعاب والشمول ما لا يرى فى غيره .. والشيخ عبد العزيز جاويش يروى فى كتابه (الإسلام دين الفطرة) واقعة حال لأحد كبار الإنجليز ، وهو عالم كبير كان فى باخرة تمخر عباب أحد المحيطات ، وواجهت خطراً داهماً تؤلفه ثورة البحر ، وعصف الرياح ، واحتدام الظلام ، فلما انجابت الغاشية ، وعاد وركب الباخرة إلى أمن وعافية ، رأى ذلك الذى كان تفسيراً لآية من آيات تليت — عليه قبلا — بمعناها المترجم إلى الإنجليزية ، ولو عرفها فى لسانها العربى لزادته إعجاباً بالقرآن وإيماناً بأنه فى ألفاظه ومعانيه أكبر من أن يكون كلام إنسان .. والآية هى قول الله تعالى : « أو كظلمات فى بحر لجىّ يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ، ظلمات بعضها فوق بعض إذا أخرج يده لم يكد يراها ، ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور »[1] .

وكم فى القرآن الكريم مما يعجز المرء فى أعلا درجات الفهم والإدراك أن يحصيه من شواهد الجلال ، ومشاهد الكمال ، وجوانب العظمة الدالة على أن القرآن كلام الله حقاً ، وأنه بهذه المثابة جدير بأن يستمسك بحبله ، ويحتمى بحماه ، وأن يستنفد كل اهتمامنا بتدبره والنظر فيه ، للعمل لا للمراء والجدل ، ورحم الله أبا حفص عمر فقد قال : (إذا غضب الله على قوم رزقهم الجدل ، وحرمهم العمل) .

---

(١) سورة النور ، الآية ٤٠

والقرآن الكريم أهل لأن نرى أنفسنا فى مرآته ، وأن نتعرف أين هى من توجيهاته ودلالاته ، وأن نزن تصرفاتنا فى ميزانه ، فإن رأينا خيراً حمدنا الله الذى بنعمته تتم الصالحات ، وإن وجدنا غير ذلك بادرنا فوصلنا أنفسنا من جديد بكتاب الله ، غير وانين ، ولا مترخصين فى شىء مما نهى الله عنه ، ولا نتقاعس جهد استطاعتنا عن القيام لله بما أمر وأوجب .

ونسأ الله فى حياة السيد أبى الحسن على الندوى ، فلقد كان على رأس أحد وفود رابطة العالم الإسلامى بمكة المكرمة ، لدعم التضامن الإسلامى ، وتحقيق وحدة الأمة التى يهتف بها كتابها : « واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا »(١) .

ويقول : « والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله ، أولئك سيرحمهم الله ، إن الله عزيز حكيم »(٢) .

وفى بغداد صلى الوفد فى جامع الشهداء صلاة الجمعة ، واستمعوا إلى قارئ يتلو سورة الأنبياء . وأستاذنكم فى عرض سريع لأهم الأغراض التى استهدفتها سورة الأنبياء .. فلقد ذكرت اقتراب القيامة ، بما فيها من حساب وفوز بالجنة دار كرامة الله لخاصته ، أو مصير إلى النار جزاءً وفاقاً .

« وما ربك بظلام للعبيد »(٣) .

وبينت الآيتان الأوليان غفلة الناس عن الآخرة ، وتلهيهم عما يعرض عليهم من آيات الله تعالى ، وأنهم تهامسوا بينهم فى إنكار رسالة النبى صلى الله عليه وسلم ، فهو لا يعدو أن يكون بشراً مثلهم ، وأن القرآن الذى يتلو ليس إلا سحراً ، ويأمره الله أن يؤكد لهم علم الله بكل ما تهامسوا

(١) سورة آل عمران ، الآية ١٠٣ (٢) سورة التوبة ، الآية ٧١
(٣) سورة فصلت ، الآية ٤٦

به ، وزادوا أن القرآن أخلاط ورؤى منامية، ثم رجعوا عن هذا إلى أنه افتراه ، وادعى نسبته إلى مولاه ، ثم رجعوا يقولون : إن محمداً شاعر ، وطالبوه بآيات وشـواهـد على نبوّته ، وقـد يكون من الأجـدى ههنا — والمجال مجال القرآن — أن نشير مسرعين الى مثل قوله تعالى :

« وما أرسلنا قبلك إلا رجالا نوحى إليهم »(١) .

وقوله : « لقد أنزلنا إليكم كتاباً فيه ذكركم »(٢) .

وقوله : « قـل إنمـا أنذركم بالوحى ولا يسـمع الصمّ الدعاء إذا ما ينذرون »(٣) .

وقوله : « وهذا ذكر مبارك أنزلناه أفأنتم له منكرون »(٤) .

وقوله : « ولقـد كتبنا فى الزبور — كتاب داود — من بعـد الذكر — الذى هو التوراة — أن الأرض يرثها عبادى الصالحون »(٥) .

وقوله : « قل إنما يوحى إلىّ أنما إلهكم إله واحد »(٦) .

ومبدأ التوحيد تعددت وتكررت فيه الآيات الأولى من السورة .

وأستأذنكم مرة أخرى فى ذكر كلام الشيخ الندوى يومئذ .. قال : (القرآن مرآة وضيئة يرى فيها الأفراد والجماعات وجهها وتعرف مكانتها . إخوانى وسادتى : لقد سمعت أخاً كريماً يتلو سورة الأنبياء ، ومرت بى آية أثارت فى نفسى معانى كثيرة ، وعبراً عميقة ، وهى قوله تعـالى : « لقد أنزلنا إليكم كتاباً فيه ذكركم أفلا تعقلون » .

إن هذه الآية تنبهنا إلى أن القرآن مرآة صافية وضيئة صادقة أمينة ، يرى فيها كل إنسان وجهه وملامحه وسماته ، ليعرف مكانه من بين الناس ؛

---

(١) سورة الأنبياء ، الآية ٧
(٢) سورة الأنبياء ، الآية ١٠
(٣) سورة الأنبياء ، الآية ٤٥
(٤) سورة الأنبياء ، الآية ٥٠
(٥) سورة الأنبياء ، الآية ١٠٥
(٦) سورة الأنبياء ، الآية ١٠٨

وطبقته من بين طبقاتهم ، ويعرف مكانته عند الله ، فإن القرآن يحدث عن أخلاق الناس وصفاتهم ومخايلهم ، وهو مجموعة صور لجميع أنماط البشرية ، ونماذج الإنسانية .

« لقد أنزلنا إليكم كتاباً فيه ذكركم » .

أى حديثكم وخبركم ، كما فهمه كثير من العلماء ، وقدكان السلف ينظرون إلى القرآن باعتباره كتاباً حيًّا ناطقاً جلِىّ الدلالة ، لا أنه مجرد كتاب تاريخى أثرى ، يتحدث عن الذين عاشوا فى القرون الغابرة ، ومضوا لسبيلهم لا شأن لهم بالحياة الإنسانية ولا بالأحياء .. وكانوا يعرفون نفوسهم وأخلاقهم جيداً ولا يلتبس عليهم أمرهم ، فكانوا يستوحون هذا الكتاب ، ويجدون أنفسهم بسهولة فى القرآن ، فيحمدون الله إذا وجدوا خيراً ، ويستغفرونه إذا وجدوا غير ذلك ، ثم يقبلون على أنفسهم فيصلحونها .

وذكر قصة كان قد قرأها عن الأحنف بن قيس ، وهو من خيرة رجال هذه الأمة ، وبه يضرب المثل فى الحلم ، وفى الزعامة ، حيث يقولون : كان إذا غضب غضب له مائة ألف لا يسألونه لِمَ غضب ، ونجمل هذه القصة التى أوردها المروزى وهو من تلاميذ الإمام أحمد رضى الله عنه .

عرضت هذه الآية : « لقد أنزلنا إليكم كتاباً فيه ذكركم » للأحنف وهو جالس يوماً ، فانتبه وقال : علىّ بالمصحف لألتمس ذكرى اليوم ، حتى أعلم من أنا ؟ ! ومن أشبه ؟! فنظر فى المصحف ، فمر بقوم : « كانوا قليلا من الليل ما يهجعون * وبالأسحار هم يستغفرون * وفى أموالهم حق للسائل والمحروم »(١) .

ومرّ بقوم « تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون ربهم خوفاً وطمعاً ومما رزقناهم ينفقون »(٢) .

---

(١) سورة الذاريات ، الآيات ١٧ — ١٩ (٢) سورة السجدة ، الآية ١٦

ومرّ بقوم « يبيتون لربهم سجداً وقياماً »[١] .

ومرّ بقوم « ينفقون فى السراء والضراء والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس .. »[٢] .

ومر بقوم « يؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ، ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون »[٣] .

ومرّ بقوم « يجتنبون كبائر الإثم والفواحش ، وإذا ما غضبوا هم يغفرون * والذين استجابوا لربهم وأقاموا الصلاة وأمرهم شورى بينهم ومما رزقناهم ينفقون »[٤] .

قال : فوقف ثم قال : اللهم لست أعرف نفسى ههنا ! ! !

ثم أخذ فى السبيل الآخر فمرّ بقوم « إذا قيل لهم لا إله إلا الله يستكبرون * ويقولون إننا لتاركوا آلهتنا لشاعر مجنون »[٥] .

ومرّ بقوم « إذا ذكر الله وحده اشمأزت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة ، وإذا ذكر الذين من دونه إذا هم يستبشرون »[٦] .

ومرّ بقوم يقال لهم : « ماسلككم فى سقر * قالوا لم نك من المصلين * ولم نك نطعم المسكين * وكنا نخوض مع الخائضين * وكنا نكذب بيوم الدين * حتى أتانا اليقين »[٧] .

قال : ثم توقف ثم قال : اللهم أبرأ إليك من هؤلاء ! !

قال : ومازال يقلب الورق ، ويلتمس ، حتى وقع على هذه الآية : « وآخرون اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملا صالحاً وآخر سيئاً عسى الله أن يتوب عليهم ، إن الله غفور رحيم »[٨] .

---

(١) سورة الفرقان ، الآية ٦٤ — (٢) سورة آل عمران ، الآية ١٣٤
(٣) سورة الحشر ، الآية ٩ — (٤) سورة الشورى ، الآيتان ٣٧ و ٣٨
(٥) سورة الصافات ، الآيتان ٣٥ و ٣٦ — (٦) سورة الزمر ، الآية ٤٥
(٧) سورة المدثر ، الآيات ٤٢ — ٤٧ — (٨) سورة التوبة ، الآية ١٠٢

فقال : اللهم هؤلاء . ثم قال : (تعالوا نلتمس ذكرنا فى القرآن بأمانة ودقة وجد وعزم) .

إن القرآن يقرن بين التبشير والإنذار ، ويأتى بوصف الصالحين والمنحرفين ، ويصوّر الجماعات كما يصوّر الأفراد فيقول : « ومن الناس من يعجبك قوله فى الحياة الدنيا ويشهد الله على ما فى قلبه وهو ألد الخصام * وإذا تولى سعى فى الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل والله لا يحب الفساد * وإذا قيل له اتق الله أخذته العزة بالإثم فحسبه جهنم ولبئس المهاد »(١) .

ثم يعقب : « ومن الناس من يشرى نفسه ابتغاء مرضاة الله والله رءوف بالعباد »(٢) .

ويصف الجماعة بقوله : « يأيها الذين آمنوا من يرتدّ منكم عن دينه فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه ، أذلة على المؤمنين ، أعزة على الكافرين ، يجاهدون فى سبيل الله لا يخافون لومة لائم ، ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ، والله واسع عليم »(٣) .

ولكلام السيد بقية نقف منها عند هذا الحد لأهتف بالمسلمين أن ارجعوا إلى كتاب الله ، رجعة إلى سنة رسول الله ، رجعة إلى تاريخ الذين خرّجهم القرآن ، وتدرجوا على مدارج الحديث الشريف وهم يقولون ويعملون .

ورضى الله عن أبى حفص أمير المؤمنين ، فلقد قال للصحابة رضوان الله عليهم ، وهو ينظر إلى قول الله تعالى : «كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله »(٤) .

فقال : من أراد أن يكون من أهل هذه الآية فليؤد شرط الله فيها .. فهل نفعل .

---

(١) سورة البقرة ، الآيات ٢٠٤ — ٢٠٦ (٢) سورة البقرة ، الآية ١٠٧
(٣) سورة المائدة ، الآية ٥٤ (٤) سورة آل عمران ، الآية ١١٠

نظرات فى القرآن ونظرات

معانى آيات القرآن الكريم ، ووقع كلماته فى الأنفس ، وقدرتها الخارقة على الاستيعاب ، والإحاطة بشئون الحياة والأحياء أفراداً وجماعات ، فى يومهم وغدهم ، وفى عاجلهم وآجلهم ، والتجدد الذى يطالعك كلما رددت بصرك ، وأعملت فكرك فى آياته وجمله وكلماته ، أمور مأنوسة لأنها بعض ملامح كتاب الله تعالى التى ذكر طائفة منها (يورك) الإنجليزى وهو يقول : (والقرآن بالإضافة إلى كونه من أجمل الروائع الأدبية فى العالم كله ، دستور كامل من القوانين الأخلاقية والمدنية والعسكرية والاجتماعية ، وهو دستور يضبط سلوك المسلمين الذين يجب أن تكون جميع أعمالهم بمقتضى تعاليم القرآن الكريم) حتى قال : (أما كون المسلمين يعتبرون أن قوانين القرآن ثابتة ومعصومة من الخطأ فيتضح من الحقيقة القائلة بأنه بالرغم من انقضاء ثلاثة عشر قرناً) هذا كلام الرجل .

فنحن فى بعض أعوام العشر الأولى من القرن الخامس عشر ، بالرغم من انقضاء هذا الزمن على نزول القرآن الكريم فإنه لم يتعرض لأقل تغيير أو تبديل — وهذا كلام الرجل أيضاً ، ولقد مرّ بين يديك أنهم حاولوا ذلك ويحاولونه فتصدمهم دائماً حقيقة حفظ الله لكتابه — ويتابع الرجل قوله : (وإن كل كلمة من كلماته وكل حركة من حركاته قد بقيت كما خرجت من شفتى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وسيبقى القرآن هكذا دون أى تحريف أو تبديل) حتى قال : (القرآن الكريم خالص من الدخيل

الإنسانى ، وهذه حقيقة لايمكن أن تقال كلها أو جزؤها عن سائر الكتب المقدسة للأديان الأخرى) . اهـ .

وخلوص القرآن — كما قال ذلك الإنجليزى يورك — من التدخل الإنسانى ، يعنى ربانيته ، وأن عمل الصادق المصدوق صلوات الله وسلامه عليه فيه ، هو البلاغ كما أداه إليه جبريل ، والبيان الذى يقول الله فيه : « ثم إن علينا بيانه »(١) .

ويقول : « وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم ولعلهم يتفكرون »(٢) .

وقد كان بحاله وقاله ، قرآناً يسير فى الناس — صلوات الله عليه .

ومن العلماء من قال فى قوله تعالى : « ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يقضى إليك وحيه »(٣) .

إنها بمعنى : (لا تتله حتى تتبينه) وهو فهم طيب ، وإن كان تأويل ابن عباس رضى الله عنهما يتصل بقوله تعالى : « لاتحرك به لسانك لتعجل به » ، إذ كان النبى صلى الله عليه وسلم يبادر جبريل ، فيقرأ قبل أن يفرغ جبريل من الوحى ، حرصاً على الحفظ ، وشفقة على القرآن ، مخافة النسيان فنهاه الله عن ذلك وأنزل : « لا تحرك به لسانك لتعجل به » الآيات .

أجل يتبين لك من كلام الله الجديد الطارف ، وأنت تنظر فى الآية بنور من القرآن ، ودافع من الإيمان ، وحرص على طلب موعود الله تعالى فى قوله : « الرحمن * علم القرآن * خلق الإنسان * علمه البيان »(٤) .

ورغبة فى مزيد من العلم بكتاب الله الذى علم رسوله أن يسأله (العلم) . أجلّ النعم بعد الإيمان فقال : « وقل رب زدنى علماً »(٥) .

---

(١) سورة القيامة ، الآية ١٩
(٢) سورة النحل ، الآية ٤٤
(٣) سورة طـه ، الآية ١١٤
(٤) سورة الرحمن ، الآيات ١ — ٤
(٥) سورة طـه ، الآية ١١٤

ورحم الله الإمام المزنى فقد قال : (إنى أقرأ كتاب (الرسالة) للإمام الشافعى منذ خمسين سنة ، وما من مرة قرأته فيها إلا ووجدت فيه جديداً) .

وفى (فتح القدير) للإمام الشوكانى ، ج ٢ ص ٤ (حكى النقاش أن أصحاب الفيلسوف الكندى قالوا له يوماً : أيها الحكيم ، اعمل لنا مثل هذا القرآن .. فقال : نعم ، أعمل لكم مثل بعضه .. واحتجب أياماً كثيرة ، ثم خرج فقال : والله ما أقدر ، ولا يطيق هذا أحد ، إنى فتحت المصحف فخرجت سورة المائدة ، فنظرت فإذا هو قد نطق بالوفاء ، ونهى عن النكث ، وحلل تحليلا عاماً ، ثم استثنى بعد استثناء ، ثم أخبر عن قدرته وعن حكمته فى سطرين ، ولا يقدر أحد أن يأتى بهذا) . ا هـ .

والكندى إن اعترف بالحقيقة ، مجلوة صريحة ، فقد بقى العجب مما توهمه ، وحسب أنه قادر عليه أول أمره ، والهدى هدى الله .

« ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً أو قال أوحى إلىّ ولم يوح إليه شىء ، ومن قال سأنزل مثل ما أنزل الله .. »[1] .

وإذا كانت كلمة الكندى فى نظر آية أو آيتين ، فإن كلمة للسيد مصطفى صادق الرافعى فى كتابه الفذ (إعجاز القرآن والبلاغة النبوية) توافى فى مناسبتها . فهو يقول رحمه الله :

(فأنت ما دمت تنظر فى القرآن حتى تفرغ منه ، لا ترى غير صورة واحدة من الكمال ، وإن اختلفت أجزاؤها فى جهات التركيب ، وموضع التأليف ، وألوان التصوير ، وأغراض الكلام ، فإنها تفضى إليك جملة واحدة ، حتى تؤخذ بها ، ويغلب عليك شبيه فى التمثيل بما يغلب على أهل الحسّ بالجمال إذا عرضت لأحدهم صورة من صوره الكاملة ، فإن

---

(١) سورة الأنعام ، الآية ٩٣

لهم ضرباً من النظر يعتريهم فى تلك الحالة خاصة ، ولو سميته حسّ النظر الفكرى لم تبعد) .. حتى يقول :

(وذلك أمر محقق بعد النظر فى القرآن الكريم ، يقرأ الإنسان طائفة من آياته فلا يلبث أن يعرف لها صفة من الحسّ ترافد ما بعدها وتمدّه ، فلا تزال هذه الصفة فى لسانه ، ولو استدعت القرآن كله ، حتى لا يرى آية قد أدخلت الضيم على أختها ، أو نكرت منها ، أو أبرزتها عن ظل هى فيه ، أو دفعتها عما هى عليه) .

إن كلام الرافعى — رحمه الله — يستهدف كشف إعجاز القرآن على نحو رفيع طارف يبعد عما استهدفناه من بيان (الهداية) فى كتاب الله ، وأنها أجلّ أغراضه ومقاصده ومزاياه ، فحين نأخذ الهداية من ذلك الوعاء ، نلقاها وقد هزت المشاعر ، وأيقظت الأحاسيس ، وأثارت كامن العرفان لقدر القرآن .. وكان قد قال قبلا :

(أما ألفاظ هذا الكتاب الكريم فهى كيفما أدرتها ، وكيفما تأملتها ، وأين اعترضتها من مصادرها أو مواردها ، ومن أى جهة وافقتها ، فإنك لا تصيب لها فى نفسك ما دون اللذة الحاضرة ، والحلاوة البادية ، والانسجام العذب ، وتراها تتساير إلى غاية واحدة ، وتسبح فى معرض واحد ، ولا يمنعها اختلاف حروفها ، وتباين معانيها ، وتعدد مواقعها من أن تكون جوهراً واحداً فى الطبع والصقل ، وفى الماء والرونق ، كأنما تتلامح بروح حية ما هو إلا أن تتصل بها حتى تمتزج بروحك ، وتخالط إحساسك ، فلن تكون معها إلا على حالة واحدة) :

أقول : وهل تبدأ الهداية إلا من تلامح وتلاحم ؟!

إن القرآن الكريم باق على صبغته الربانية ، وإن تعددت أغراضه البشرية والكونية ، أو كما يقول الرافعى رحمه الله :

(هذا على أن فيه — فى القرآن — من المعانى الكثيرة والأغراض الوافرة ،

مما لو كان فى كلام الناس لظهر عليه صبغ النفس الإنسانية لامحالة ، بأوضح معانيه ، وأظهر ألوانه ، وبصفات كثيرة من أحوال النفس ، وحسبك أن تأخذ قطعة منه فى الموعظة والترغيب ، أو الزجر والتأديب ، ونحو ذلك مما يستفيض فيه الكلام الإنسانى ، فتقرنها إلى قطعة مثلها من كلام أبلغ الناس بياناً ، وأفصحهم عربية ، لترى فرق مابين أثر النفس الواحد فى كلتا القطعتين ، ولتقع على مقدار مابين الطبقة الإلهية ، والطبقة الإنسانية فى السعة والتمكن ، فإن هذا أمر لا تصف العبارة منه ، وإذا وصفت لا تبلغ من صفته ، ثم لا دليل عليه لمن يريد أن يستدل إلا الحس) .

إن هـذا التسامى فى التعبير ، والتصوير والبرهنة ، والتنظير فى كلام الرافعى ، هو من فيض القرآن وروحه ، وهكذا يصنع القرآن الكريم ، ويفيض من أسراره وأنواره على الذين يجعلونه نهمتهم ، ويرصدون له همتهم ، ويرونه على حقيقته مائدة الله الكبرى ، وحبله الممدود بين السماء والأرض ، ورضى الله عن الإمام البخارى فقد روى بسنده عن جندب بن عبد الله أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : (اقرأوا القرآن ما ائتلفت عليه قلوبكم فإذا اختلفتم فقوموا عنه) .

والمراد قراءته على نشاط منكم ، وخواطر متحركة ، فإذا حصل لكم ملالة فاتركوه ، فإنه أعظم من أن يقرأه أحد من غير حضور القلب ، واتقاد الذهن ، والتأهل لاستقبال هداياته ، والاستعداد لإيثار توجيهاته على هوى الأنفس ، وادعاء فلان وفلان أنهم أحفياء بالقرآن ، وافون للإسلام ، داعون بما يحسبونه بوهمهم علماً إلى الرسالة الخاتمة ، وهم — فى الحقيقة — يميطون اللثام عما يشهدونه من باطل أطل برأسه قديماً فى خدمة المذاهب السرية ، والطوائف الباطنية ، ومذاهب بيننا لا صلة لها بالإسلام ، وهى تحمل اسم (الماسونية) و (البابية) و (البهائية) و (القاديانية) . وخرافة الرقم (١٩) .

إن من الإيغال فى الضلال أن نحاول صرف الآيات القرآنية الواضحة الجلية عن بادى معناها ، وعن حقيقتها التى لاحقيقة سواها ، لنوافق ضلالا عشش وباض وأفرخ فى رءوس ناس ليسوا من الإسلام ولا قلامة ظفر .

وما لى لا أصارح بهذا الذى يلوى عنق قول الله تعالى : « عليها تسعة عشر » فى الآيات ١١—٣١ من سورة المدثر ، فهى نص فى الوليد بن المغيرة ووعيد الله تعالى له بإصلائه سقر ، التى وصفتها الآيات وذكرت زبانيتها: « وما هى من الظالمين ببعيد »[١] .

وحتى يتضح المقام فلنقرأ معاً قول الله تعالى :

« ذرنى ومن خلقت وحيداً * وجعلت له مالا ممدوداً * وبنين شهوداً * ومهدت له تمهيداً * ثم يطمع أن أزيد * كلا إنه كان لآياتنا عنيداً * سأرهقه صعوداً * إنه فكر وقدر * فقتل كيف قدر * ثم قتل كيف قدر * ثم نظر * ثم عبس وبسر * ثم أدبر واستكبر * فقال إن هذا إلا سحر يؤثر * إن هذا إلا قول البشر * سأصليه سقر * وما أدراك ما سقر * لاتبقى ولاتذر * لوّاحة للبشر * عليها تسعة عشر * وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة وما جعلنا عدتهم إلا فتنة للذين كفروا ليستيقن الذين أوتوا الكتاب ويزداد الذين آمنوا إيماناً ولا يرتاب الذين أوتوا الكتاب والمؤمنون وليقول الذين فى قلوبهم مرض والكافرون ماذا أراد الله بهذا مثلا كذلك يضل الله من يشاء ويهدى من يشاء وما يعلم جنود ربك إلا هو وما هى إلا ذكرى للبشر »[٢] .

أيسوغ فى عقل أن نفهم من « تسعة عشر » أنهم ليسوا ملائكة ؟ ثم أيكون ذلك هو الإعجاز والكشف العلمى ؟ ! وهل استخدام الآلات الجديدة التى تقدم من المعلومات ما نقدمه نحن إليها من الأوهام تارة ومن الصواب أخرى ، قد أتى الناس بجديد ؟ وقد أحصى أوائلنا القرآن الكريم

---

(١) سورة هود ، الآية ٨٣ (٢) المدثر ، الآيات ١١ — ٣١

سورة سورة ، وربعاً ربعاً ، وجزءًا جزءًا ، وآية آية ، وكلمة كلمة ، وحرفاً حرفاً ؟!

وليشمر الناظرون فى القرآن الكريم ، والمتدبرون له ، عن سواعدهم بشرط وضوح القصد ، وحسن النية ، والتجرد من الأهواء ، وابتغاء وجه الله تعالى فى كل ذلك ، فهم يستوجبون بعملهم رضى الله سبحانه وهداه لا ريب ، ويجدون من الأسوياء حمداً وتقديراً .

وليس من هؤلاء من فتنوا الناس ، وحاولوا أن يفتنوهم بما افتتنوا هم به من سر الرقم (١٩) الذى هو فى حقيقته شعار البهائية ، كما دلل على ذلك وبرهن ، فأقنع الأستاذ المستشار حسين ناجى محمد محيى الدين ، أطال الله عمره وأجزل أجره ، وضاعف عزمه على الحياة لدين الله ، والذب عن حياضه ، ليقدم أمثال كتابه (التسعة عشر ملكاً) وبحوثه التى تتتابع على نشرها الصحافة الكويتية وغيرها .

إن إعجاز القرآن لا يتناهى ، ومن الضرورى استجلاء الوشائج الحانية بينه وبين الكون والحياة والأحياء ، وسبقه إلى ارتياد شتى العلوم وتقديم مفاتيحها للذين يعرفون دور الإسلام والقرآن والسنة فى إبلاغ المستخلفين الوارثين ، هذه الحياة أرفع ما كتب الله لها بجهدهم البشرى الفعال بقدر استجاشتهم فيه للإيمان والاستعانة بالله الذى يتولى الصالحين ولا يضيع أجر المحسنين .

إن مفاتيح العلم التى قدمها القرآن الكريم ، وما يزال يقدمها ، جانب من جوانب إعجازه ، وشاهد أنه كتاب (الهداية) التى يخدمها العلم النافع الذى ينوه به القرآن والسنة ، وترتفع فيها قيمة أهل العلم على المؤمنين — خاصة الله من أهله — درجات .

قال تعالى : « يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات »[١] .

---

(١) سورة المجادلة ، الآية ١١

قال الإمام ابن رشد : (وقد قال الإمام مالك فى قوله تعالى : « والراسخون فى العلم » هم العاملون بما علموا ، المتبعون لها) .

قال ابن رشد : وقول مالك رضى الله عنه هو معنى ما روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : (إن الراسخ فى العلم هو من برّتْ يمينه ، وصدق لسانه ، واستقام قلبه ، وعفّ بطنه ، فذلك الراسخ فى العلم) .

قال ابن رشد : ويشهد لصحة ذلك قول الله تعالى : « إنما يخشى الله من عباده العلماء » (١) .

(لأن من لا يخشى الله فليس بعالم) . اه .

وقد روى الثعالبى أثر آية من القرآن فى عبد الملك بن مروان فقال : (سمع عبد الملك بن مروان قول منصور بن عمار : (أعقل الناس محسن خائف ، وأجلهم مسيء ناس) . فبكى عبد الملك حتى بلّ لحيته وثيابه ، ثم قال : يامنصور ، اتل علىّ شيئاً من القرآن الكريم ، فقرأ : « يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً ، وما عملت من سوءٍ تودُّ لو أن بينها وبينه أمداً بعيداً » (٢) .

فقال عبد الملك : قتلتنى يامنصور ، ثم غشى عليه) .

هكذا نفذت هدايات القرآن إلى أنفس المؤمنين دون أن يحملوه شيئاً من فلسفاتهم وأفكارهم التى لا تتفق ومنّة الكريم ، ومراد العليم الحكيم .

---

(١) سورة فاطر ، الآية ٢٨ (٢) سورة آل عمران ، الآية ٣٠

النبى يضرب الأمثال

تبدو عناية الرسول ، صلى الله عليه وسلم ، بالهداية التى أنزل الله بها كتبه إلى رسله فى أحاديث ذوات عدد ، صحت نسبتها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والرسول الذى أوتى جوامع الكلم ، يوردنا من سنته موارد الحكمة والعلم ، اللذين امتن الله بهما عليه فقال : « وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة وعلّمك ما لم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيماً »(١) .

ورحم الله من قال : لو أن وراء العلم ما يفضله عند الله تعالى ، لعلمه رسوله صلى الله عليه وسلم كى يسأله ، لكنه تعالى قال : « ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يقضى إليك وحيه وقل ربى زدنى علماً »(٢) .

ولم يزل رسول الله صلى الله عليه وسلم فى زيادة من العلم ، يتداركه الله به على حسب ظروف الدعوة ، ومتطلبات الأداء والتبليغ ، حتى آثر الرفيق الأعلى — صلوات الله عليه — كما قال الإمام ابن كثير رحمه الله من كلام ابن عيينة وقال :

وفى الحديث : (أن الله تابع الوحى على رسوله ، حتى كان الوحى أكثر ما كان يوم توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم) . وقد مرَّ بين يديك سند الحديث . وروى ابن ماجه بسنده عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول : (اللهم انفعنى بما علّمتنى ، وعلمنى ماينفعنى ، وزدنى علماً ، والحمد لله على كل حال) .

---

(١) سورة النساء ، الآية ١١٣ (٢) سورة طـه ، الآية ١١٤

وقد تعددت طرقه وفيها زيادة : (وأعوذ بالله من حال أهل النار) .

إن العلم يؤخذ ، أصدق ما يؤخذ ، من القرآن الكريم ، والسنة المطهرة ضرورية فى ذلك ، فيكون على مستوى الاهتداء به ، وهداية الآخرين ، وكم ضل من حاول أن يهدى غيره ، وهو على غير هدى من الله ، ولا علم بكتابه وتوجيهات مصطفاه ، وأسلوبه صلوات الله عليه فى الدعوة إلى الله ، ومنهج السلف رضوان الله عليهم فى قيامهم بواجب هداية الخلق إلى الحق ، ولقد ترك هؤلاء ذخيرة ثرة من أقوالهم وأحوالهم هى ضرورية ماسة للدعاة إلى الله حتى يكونوا أهل الاقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم فى قوله تعالى له : « ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن ، إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين »(١) .

ومن الخير أن نرى طبقات الناس أمام هدايات الإسلام فيما روى أبو موسى الأشعرى رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (مثل ما بعثنى الله به من الهدى والعلم ، كمثل الغيث الكثير أصاب أرضاً ، فكان منها نقية قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير ، وكانت منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله بها الناس فشربوا وسقوا وزرعوا ، وأصاب منها طائفة أخرى ، إنما هى قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ ، فذلك مثل من فقه فى دين الله ، ونفعه ما بعثنى الله به ، ومثل من لم يرفع بذلك رأساً ، ولم يقبل هدى الله الذى أرسلت به) متفق عليه .

إن لأبى موسى ، رضوان الله عليه ، لشرفاً أضفاه عليه الله بالقراءة ، فلقد قال فيه الصادق المصدوق صلوات الله عليه : (لقد أوتى مزماراً من مزامير آل داود) رواه الترمذى والشيخان .

---

(١) سورة النحل ، الآية ١٢٥

وكان الخليفة الراشد عمر رضى الله عنه يقول له : (ذكرنا ربنا يا أبى موسى) وأنس رضوان الله عليه يقول : (إن أبا موسى كان يعلّم الناس القرآن فى البصرة) .

وهو خبر يرتبط بقول صاحب الإصابة ابن حجر رحمه الله : (كان أبو موسى هو الذى فقه أهل البصرة وأقرأهم) .

وفى الحديث كلمات : (الهدى ، والعلم ، والكلأ ، والعشب ، وأجادب ، وقيعان ، وفقه) فلنعرّف بها بعض التعريف .

إن المثل هو الحال والشأن والصفة العجيبة ، لا مجرد القول السائر فى الناس ، كأنها لغرابتها تتشبّه بها وتتمثل ، وهذا الحال والصفة قد تكون طيبة وقد تكون غير طيبة كما فى الحديث ، والمثل : الحكمة والقول الصادق ، كقولهم : (السكوت أخو الرضا) و(السر أمانة) .

والمثل ما يجرى التشبيه به لبلوغه الغاية فى معنى من المعانى ، كقولهم : (حاتم مثل فى الجود) . و« الهدى » الدلالة الموصلة إلى المقصود ، وهى بهذا المعنى فى أكثر آيات القرآن .. وقد وردت بمعنى الدلالة وصلت إلى المقصود أو لم توصل ، وفى (معجم ألفاظ القرآن الكريم لمجمع اللغة العربية فى القاهرة) : هداه الشىء ، وإليه وله هدياً وهداية وهدى فهو هاد ، يجىء لما يأتى .

يقال : هداه الطريق ونحوه وإليه وله : عرّفه له وأزال حيرته فيما يسلك .. يقول : هديت الحاج طريق مكة ، وذلك فى المحسوسات حقيقة ، وقد يحذف أحد المفعولين أو كلاهما للعلم به كما فى قوله تعالى حكاية لقول موسى عليه السلام : « ربنا الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى »[1] .

أى عرفه مصالحه وما يقوم به ، وألهمه وجه الانتفاع به مع وصول إلى ذلك ، ومثله : « والذى قدّر فهدى »[2] .

(١) سورة طـه ، الآية ٥٠ (٢) سورة الأعلى ، الآية ٣

ويقال : هداه الحق ونحوه وإليه وله ، أرشد إليه ، ودله عليه بلطف ودلالة من شأنها أن توصل إلى البغية ، ويكون ذلك فى الخير ، وهذا مجاز عن المعنى السابق الذى هو فى الحسيات .. أما هـذا فى المعانى يقـال : هديته سبل الرشاد ، وهديته إلى الرشاد فاهتدى ، وهديته إلى الرشاد فما ارعوى عن غيه .. ومن هـذا المعنى قوله تعـالى : « وإن كانت لكبيرة إلا على الذين هدى الله »[١] .

فالهدى هنا هو الإرشاد مع التوصيل إلى الغرض .. وهو المنسوب إلى الأنبياء وكتب الله تعالى .

ويقال : هداه إلى الإيمان ، دله عليه وأدخله فيه ، ووصَّله إليه ، وهذا هو الهدى المنسوب إلى الله تعالى ، وأكثر ما يكون ذلك فى مقابلة الإضلال ، قال تعالى : « إن هى إلا فتنتك تضلّ بها من تشاء وتهدى من تشاء »[٢] .

والمادة جديرة بالاستكمال فى المرجع الذى ذكرته (وهو معجم ألفاظ القرآن الكريم لمجمع اللغة العربية فى القاهرة) .

والعلم المراد فى الحديث ، هو الأحكام الشرعية وعطفه على الهدى ، وهو الدلالة ، من باب عطف المدلول على الدليل ، فلا يكون العلم علماً يعتد به إلا إذا استهدف الهـدى ، وكان وسيلة صـلاح وإصـلاح وانفتـاح عـلى الحياة بالله .

والغيث : المطر يجىء لحـاجة الناس فيكون كما قال الرسول صلى الله عليه وسلم : (اللهم غيثاً مغيثاً) .

فإذا جاء ولا حاجة إليه لم يكن غيثاً ، وإليه الإشارة بقوله صلى الله عليه وسلم : (اللهم حوالينا ولا علينا) .

---

(١) سورة البقرة ، الآية ١٤٣ (٢) سورة الأعراف ، الآية ١٥٥

والكلأ : النبات رطباً ويابساً .. والعشب : هو الرطب فقط .. وعطفها من عطف الخاص على العام .

والإمام النووى — رحمه الله — يلحظ أن طبقات الناس فى الحديث أمام هدايات الله ثلاث ، فيقول : (معنى هذا التمثيل أن الأرض ثلاثة أنواع فكذلك الناس) .

فالنوع الأول من الأرض فى قوله صلى الله عليه وسلم : (فكان منها نقية) تنتفع بالمطر ، فتحيا بعد أن كانت ميتة ، وتنبت الكلأ فينتفع به الناس والدواب ، والنوع الأول من الناس ينفعه الهدى والعلم فيحفظه ، ويحيى قلبه ، ويعلمه غيره ، فينتفع وينفع .

والنوع الثانى من الأرض ، ما لا تقبل الانتفاع فى نفسها ، لكن فيها فائدة ، وهى إمساك الماء لغيرها ، فينتفع به الناس والدواب .

وكذلك النوع الثانى من الناس لهم قلوب حافظة ، ولكن ليست لهم أذهان ثاقبة ، ولا رسوخ لهم فى العلم يستنبطون به المعانى والأحكام ؛ وليس لهم اجتهاد فى العمل به ، فهم يحفظونه حتى يجىء أهل العلم للنفع والانتفاع ، فيأخذه منهم فينتفع به ، فهؤلاء نفعوا بما بلغهم .

والثالث من الأرض هو الأرض السبخة — التى لا تنبت — فهى لا تنتفع بالماء ولا تمسكه لينتفع به غيرها .

وكذلك الثالث من الناس ،ليست لهم قلوب حافظة ، ولا أفهام واعية ، فإذا سمعوا العلم لا ينتفعون به ، ولا يحفظونه لنفع غيرهم ..

فالأول المنتفع النافع ، والثانى النافع غير المنتفع ، والثالث غير النافع وغير المنتفع ، فالأول إشارة إلى العلماء ، والثانى النقلة ، والثالث إلى من لا علم له ولا نقل) .

وقول النووى رحمه الله : خير ما يقال فى أنواع الناس أمام ما بعث الله به مصطفاه من الهدى والعلم .

والقسم الثالث، وإن لم يذكره الرسول صلوات الله عليه ، فقد أبرز مثله الدال عليه والمرشد إليه ، فهو قد سمع ما جاء به النبى صلى الله عليه وسلم، ففهم معناه ، وتفطن إلى مغزاه ، وعرف من مراد الله فيه ما ينفع ويعين على الاستجابة لأمر الله ، ولكنه لم ينتفع فى نفسه بشىء من ذلك وجرى فى غير تلك المسالك ، وراح يؤدى دور حجر السنّ وذبالة المصباح .. فطوبى لمن علم وعمل وعلم ، فكان الغيث الذى يغيث الله به الناس أحوج ما يكونون إليه .

أدب تلاوة القرآن

إن الذين يفرغون الوسع فى التذكير بالقرآن ، والتبصير بهداياته ، والحرص على التزامه ، فى كل وجه من وجوه الحياة ، هم أحق الناس بالإقبال عليهم ، والإنصات إليهم ، وتقبل كل ما تتفرج عنه شفاههم عن القرآن : « ومن أظلم ممن ذكر بآيات ربه فأعرض عنها ونسى ما قدمت يداه ، إنا جعلنا على قلوبهم أكنَّة أن يفقهوه وفى آذانهم وقراً وإن تدعهم إلى الهدى فلن يهتدوا إذن أبداً »(١) .

« ومن أظلم ممن ذكّر بآيات ربه ثم أعرض عنها ، إنا من المجرمين منتقمون »(٢) .

وما زال فى دنيا الناس من شغف القرآن قلبه ، وأسر لبَّه ، وسيطر على كوامن إحساسه ومشاعره ، وحرك أفكاره ، فهو يغدو ويروح به على نور من ربه ، وفى دنيا الناس أحفاد لأولئك الذين عنتهم الآيات المذكورة آنفاً وأمثالها ، ولأولئك الذين قالوا : « قلوبنا فى أكنة مما تدعونا إليه وفى آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب »(٣) .

والأخلاف كالأسلاف ، عموا وصموا ، وغلف العناد أفئدتهم ، فلا ينفذ إليها من نور القرآن الذى ذكروا به شعاع ، وماذا بعد أن يقول فيهم رب العالمين : « فلن يهتدوا إذن أبداً » و « إنا من المجرمين منتقمون » .

---

(١) سورة الكهف ، الآية ٥٧ (٢) سورة السجدة ، الآية ٢٢
(٣) سورة فصلت ، الآية ٥

وكلما جدّ المرء فى ترتيل القرآن ، كان فى الحياة على بينة من ربه ، وكان صعوده فى مدارج الإيمان ، حتى يرافق الملائكة البررة فى رياض الجنان ، فعن أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (الماهر بالقرآن مع الكرام البررة) .

حالا بالعمل كعملهم ، أو مآلا فى منازل الآخرة .

وروى أبو داود عن عبد الله بن عمرو قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (يقال لصاحب القرآن اقرأ وارتق ورتل كما كنت ترتل فى الدنيا ، فإن منزلتك عند آخر آية تقرؤها) .

ولقد كان القرآن يسمع منه فى بيوت الصحابة رضوان الله عليهم كل ليلة كدوى النحل ، وذلك يشهد بأن القرآن الكريم كان يحكم ليل القوم ونهارهم ، وجهرهم وإسرارهم ، وقد عقد الإمام القرطبى فى مقدمة تفسيره باباً ذكر فيه طائفة من الآداب التى ينبغى أن يأخذ بها قارئ القرآن نفسه وهو يناجى الله بكلامه ، حتى يكون القرآن حجة له وهو يأتمر بأوامره ، ولا يكون حجة عليه وهو يغضى عن الأوامر ، ولا يكف عن الزواجر ، ومن أول ما ينبغى أن يتأدب به مناجى ربه بالقرآن ، الإخلاص فى عمله ، واستشعاره الخشوع والخشية والتعظيم لصاحب هذا الكلام رب العالمين ، راجياً بذلك توكيد العهد مع الله أن يكون قرآنى العمل والقول ، يصدر فى كل حال من كتاب الله تعالى جهد استطاعته .

ورضى الله عن أنس بن مالك فهو يقول : (كم من قارئ للقرآن ، والقرآن يلعنه ..) ، وذلك لا ريب حال الذى لايجاوز القرآن لسانه إلى شفتيه يقرأ : « ألا لعنة الله على الظالمين » وهو يظلم .. ويقرأ : « ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكافرين » وهو يكذب .

أجل ، يقرأ القرآن ويخالف عن أمره ، وأبو الدرداء رضى الله عنه

يقول : (ويل للذى لا يعلم مرة ، وويل للذى يعلم ولا يعمل سبع مرات)، ولا يفهم أحد من كلام أنس طلب ترك المذنب قراءة القرآن الكريم ، وإنما يجرى كلامه مجرى التحذير من الاستمرار على مخالفة أمر القرآن ، ووجوب المبادرة إلى الانخلاع من المآثم ، والتوبة إلى الله الذى يغفر الذنوب جميعاً ، ويغفر للمستغفرين ما أسلفوا .

وابن مسعود رضى الله عنه يقول : (ينبغى لقارئ القرآن أن يعرف بليله إذ الناس نائمون ، وبنهاره إذ الناس مستيقظون ، وببكائه إذ الناس يضحكون ، وبصمته إذ الناس يخوضون ، وبخضوعه إذ الناس يختالون ، وبحزنه إذ الناس يفرحون) .

وابن مسعود لايضيق واسعاً، ولا يوجب على القارئ التزمت والتجهم والعبوس ، وقد يكون كلام عبد الله بن عمرو بياناً فى هذا السياق ، فهو يقول : (لاينبغى لحامل القرآن أن يخوض مع من يخوض ، ولا يجهل مع من يجهل ، ولكن يعفو ويصفح لحق القرآن ، لأن فى جوفه كلام الله تعالى ، وينبغى أن يأخذ نفسه بالتصاون عن طريق الشبهات، ويقلّ الضحك والكلام فى مجالس القرآن وغيرها بما لافائدة فيه، ويأخذ نفسه بالحلم والوقار ، وينبغى له أن يتواضع للفقراء ، ويتجنب التكبر والإعجاب ، ويتجافى عن الدنيا وأبنائها ، إن خاف على نفسه الفتنة ، ويترك الجدال والمراء ، ويأخذ نفسه بالأدب والرفق ، وينبغى أن يكون ممن يؤمن شره ، ويرجى خيره ، ولا يسمع ممن نمّ عنده ، ويصاحب من يعاونه على الخير ، ويدله على الصدق ، ومكارم الأخلاق ، ويزينه ولا يشينه ، وينبغى له أن يتعلم أحكام القرآن ، فيفهم عن الله مراده ، ومافرض عليه ، فينتفع بما يقرأ ، ويعمل بما يتلو ، فما أقبح لحامل القرآن أن يتلو فرائضه وأحكامه عن ظهر قلب وهو لا يفهم ما يتلو ، فكيف يعمل بما لا يفهم معناه ، وما أقبح أن يسأل عن فقه ما يتلوه وهو لايدريه ...) .

بذلك يكون التـالى لكتاب الله من المهرة به ، عالماً عن الله ما أراد منه ، وكان من حملة القرآن بحق ، الذين يقول فيهم أبو عمر : (وحملة القرآن هم العالمون بأحكامه وحلاله وحرامه ، والعاملون بما فيه) .

.. إن قراءة القرآن كما أنزل على رسول الله ، قد تمت مخارج حروفه ، واستبانت كلماته وجمله ، مما يعين بحق على تدبره وفهمه ، وقد كانت قراءة رسول الله صلى الله عليه وسلم مفسرة حتى ليكاد السامع يعد حروف ما يقرأ صلى الله عليه وسلم ، كما قالت أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها .

وهذا حجة الإسلام أبو حامد الغزالى يقول فى كتابه (الإحياء) :

(وتلاوة القـرآن حق تلاوته أن يشترك فيه اللسان والعقل والقلب ، فحظ اللسـان تصحيح الحروف بالترتيل ، وحظ العقل تصحيح المعانى ، وحظ القلب الاتعاظ والتأثر بالانزجار والائتمار ..

فاللسان يرتل ، والعقل يترجم ، والقلب يتعظ ..

إن الاهتمام بقراءة القرآن يستحوذ على القلوب والعقول ، حتى تعود لكلمات الله هيمنتها وقـدرتها على صوغ الحياة مرة أخرى بكتاب الله ، كما صنعها وهو يتنزل على رسول الله فى نيف وعشرين سنة مكياً ومدنياً ، وسفراً وحضراً ، وليلا ونهاراً على حسب الوقائع والأحداث ، فألف بين قلوبها من فرقة وشقاق ، وأيقظها من سبات ، ونبهها من غفلات ، وجعلها بالقرآن معلمة الدنيا ، ثم كانت خير أمة أخرجت للناس ، بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والإيمان بالله ..

فليرو المؤمنون بالقرآن ، مغارس الإيمان فى أنفسهم .

ولينافسوا بهدايات الله فيه كل عامل فى شتى ميادين الحياة .

وليهدوا بتوجيهات ربهم فى كتابه هذا العالم الذى اشتبهت عليه المسالك ، وظن أنه على شيء من العلم والمعرفة وحقيقة التقـدم ، ونعمة الاستقرار

فى واحة الأمن ورحاب السلام ، وهى دعاوى يتصايح بها الناس ، وإن حقيقة ما يزعمون وصادق ما يودون ليس منهم ببعيد ، إنه فى متناولهم لو أرادوا ، إنه القرآن والسنة ، والنبى صلى الله عليه وسلم يقول : (ولا عطلوا كتاب الله وسنة رسوله إلا جعل الله بأسهم بينهم) .

يقول الإمام مالك : (إن آخر أمر هذه الأمة لايصلح إلا بما صلح به أولها) . يقول الشيخ محمد عبده رحمه الله : (صلحت أنفس العرب بالقرآن،إذ كانوا يتلونه حق تلاوته فى صلواتهم المفروضة ، وفى تهجدهم وسائر أوقاتهم ، فرفع أنفسهم وطهرها من خرافات الوثنية المذلة للنفوس ، وهذب أخلاقها ، وأعلى هممها ، وأرشدها إلى تسخير هذا الكون الأرضى كله لها ..) .

فأقيموا الحياة على قواعد القرآن ..

أجل على قواعد القرآن ، فلا بديل له ، ولا عوض عنه فى التنمية والبناء والتنوير وتزكية الأنفس وصوغ المنهج لأقوم حياة .

فالإسلام ، والقرآن كتابه ، والسنة النبوية شرحه وبيانه ، لايلبث المؤمن أن يغشى بابه الأول (لا إله إلا الله ، محمد رسول الله) مدركاً مراميها ، فاقهاً مغازيها ، مرتبطاً بها فى كل ما يقول ويعمل ، فإذا هو يقيم الصلاة، ويؤدى أركان الإسلام كلها، وإذا هو بعد ذلك قد أفاد من مبادئ الإسلام وهدى القرآن فى بناء ذاته على الكرامة والنظافة، وأكل الحلال ، والاشتغال بمعالى الأمور عن سفسافها ، والإحسان إلى ذويه ومن يليه ..

إن من العجب العاجب أن يفهم الناس فى الغرب الإسلام، بينما يقصر عن فهمه بعض الذين يحسبون عليه ، وينتسبون إليه .. إنهم هنالك يرونه نهراً يأخذ مجراه الحقيقى ، إنه نظام يشمل كل شىء من النظافة إلى عمل

الخير إلى العادات الصحيحة إلى المعاملات المالية ، فهو دستور كامل الحياة .

ولكن تضيق صدور أناس كان لهم فى حقل الدعوة إلى الله قدم ، فلما أخذهم زهو الحكم ، وبهرج السلطان فى مرحلة لم تدم ، لا تسمع إليهم متحدثين ولا تقرأ ما يكتبون ، إلا وأنت تستجلى زرايتهم بالذين يوردون النصوص فى أحاديثهم التى توسم بأنها (دينية) ، وكلام هذا القائل لا ينبغى أن يطلق إطلاقاً ، فالذين يستهدون القرآن ، ويتمرسون بالدعوة كما أدى أمانتها أوائلهم ، هم نمط من الرجال لا تسوؤهم زراية هى أحق شىء بفاعليها ، وبالذين ضيقوا فى الإسلام واسعاً ، وقوقعوه فى شكليات ومظاهر ، فقعد به عما أراد الله بدينه وكتابه ، من هداية وإصلاح وحفز للكمالات ، وبعث إلى التشمير فى البناء والتعمير واستعادة الريادة العلمية والمنافسة فى ميادين الاختراع والإبداع ، وابتكار ما يثرى الحياة التى خلقنا الله فيها « لينظر كيف تعملون » .

الفصل الخامس

- حاجتنا ماسة إلى القرآن .
- القرآن يرسى قواعد الحياتين .
- ما زال القرآن يتحدى .
- من ملامح المؤمن فى كتاب الله .

حاجتنا ماسة الى القرآن

إن حاجة البشرية بأسرها ، وحاجة المسلمين بخاصة ، إلى القرآن الكريم ، ضرورية ماسة ، أكثر من ضرورة الكائن الحى للغذاء ، وعناصر البقاء ، فالقرآن مصدر الحياة والحيوية والنماء والازدهار والأمن والاستقرار ، ولا تطلب هذه المقومات الكبرى إلا من هدايات الله وتوجيهه فى كتابه .

(ومن التمس الهدى فى غيره أضله الله) كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولم يكن مبالغاً ،ولاجاوز مشارع الصواب قيد شعرة الصحابى الجليل ابن مسعود حين قال : (لو ضاع منى عقال بعير لوجدته فى كتاب الله) .

فالمؤمن حين يعتصم بحبل الله ، ويلتزم آياته ، يعطى بذلك الدليل على أنه رضى بالله رباً وولياً وحافظاً وهادياً ، وهو مرتقى يمنحه الله عند ولايته له ، وعنايته به ، وتدبيره لأموره « وهو يتولى الصالحين » .

وفى الحديث القدسى : (فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به ، وبصره الذى يبصر به ، ويده التى يبطش بها ، ورجله التى يمشى بها ، ولئن سألنى لأعطينّه ، ولئن استعاذنى لأعيذنه » أخرجه الإمام البخارى .

يجد الصحابى فى كتاب الله تعالى كل ما فاته وضاع منه ، لأن القرآن يدعوه إلى العمل، قرين الإيمان، وينهاه عن الإثم والعصيان، ويكون لسانه به رطباً ، وقلبه رحباً ، ورضاه بالله وعن الله ، إن أعطى وإن أخذ، وإن ابتلى وإن عافى ، ثمرة يقين بأن الله أرحم بعباده من الوالدة بولدها ،

وإن رحمة الله قريب من المحسنين ، ومن أوفى بعهده من الله وهو يقول : « فاذكرونى أذكركم واشكروا لى ولا تكفرون * يأيها الذين آمنوا استعينوا بالصبر والصلاة إن الله مع الصابرين »(١) .

ومعية الله للصابرين ، وللمحسنين وللمتقين ، ولمن تحركت شفاههم بالقرآن انفعالا بقلوب استضاءت بنوره ، وهى غاية حفظه ، وفيض توفيقه ، وماطر كرمه ونداه . وفى الحديث القدسى : (أنا مع عبدى ما ذكرنى وتحركت بى شفتاه) .

وفيما أوحى إلى بعض أنبيائه : (إن كان عبدى فى طاعتى أعطيته قبل أن يسألنى ، وأجبته قبل أن يدعونى ، وأنا أعلم بحاجته التى ترفق به من نفسه) .

والمؤمن بذلك لا يكون وحده ، والله معه ، ولا يكون سلبياً ، بل إيجابياً فعالا فيما حوله ، ومن حوله ، وهو ينطلق من القرآن والسنة لإعلاء صرح مجتمعه ، مع إخوان يشمرون فى ميدان الاستخلاف الباقى ، والقرآن يهتف بهم : « فإذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الأرض وابتغوا من فضل الله ، واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون »(٢) .

ويمتن الله علينا وعلى الناس بمثل قوله : « هو الذى جعل لكم الأرض ذلولا ، فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور »(٣) .

ولا يكون المؤمن عبد شهوة ، ولا أسير نزوة ، ولامنطلقاً من مجرد هوى نفس ناكبة عن الرشد ، ولكنه يكون أبداً عبد ربه ، ويؤثر على هواه هدى الله ، ويدع اللذة التى يبلغها فى الخلاف عن أمر الله ، للذة دائمة تبدأ منذ انتصر على نفسه ، فحجزها عن المعصية ، فيورثه الله بذلك إيماناً

---

(١) سورة البقرة ، الآيتان ١٥٢ و ١٥٣

(٢) سورة الجمعة ، الآية ١٠ (٣) سورة الملك ، الآية ١٥

يجـد حلاوته فى قلبه ، وتلك هى العزة الحقة ، والقوة البشرية الخـارقة ، وأول النصر أن ننتصر على أنفسنا ، فنجد موعود الله تعـالى فى قوله : « يأيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم »(١) .

وفى الأثر الذى أورده ابن قيم الجوزية رحمه الله فى (إغاثة اللهفان) ج ١ ص ٤٨ : (إن الذى يخالف هواه ، يفرق الشيطان من ظله) وصدق الله العظيم : « ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين »(٢) .

ويقول : « من كان يريد العزة فـلله العزة جميعاً ، إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه والذين يمكرون السيئات لهم عذاب شديد ومكر أولئك هو يبور »(٣) .

والآية بدون خفاء ، تبرز وسائل العزة ، وتحدد مداخل القوة والمنعة ، فلا سبيل إلى شىء من ذلك عـلى الحقيقة إلا بالله ، ومن الله ، عن طريق ما شرع لنا من صالح القول وخالص العمل . ورحم الله من قالوا : (إن ما عند الله من خيره وبركته لا ينال إلا بطاعته) .

إن تأمل قوله تعالى : « فـلله العز جميعاً » يؤكد حصره العزة كلهـا ، وجعلها شأن الله وحده ، وهذا إبليس اللعين ، يعلم أن عزة الله أعلى شئونه فيقسم بقوله : « فبعزتك لأغوينهم أجمعين »(٤) .

ومن أراد العزة فليطلبها ممن يملكها ، بوسائلها فى شرعه وأمره تبارك وتعالى ، وهذا الذى يتعزز به البعض من مال ، ونشب ، وحسب ، ونسب ، وسلطان ، وأعوان ، هو ظاهر من القول ، ومتاع الغرور . وفى دعاء القنـــوت : (إنه لا يذل من واليت ، ولا يعز من عاديت) . والحسن البصرى يقول : (أبى الله إلا أن يذل من عصاه) .

---

(١) سورة محمـد ، الآية ٧ . (٢) سورة المنافقون ، الآية
(٣) سورة فاطر ، الآية ١٠ (٤) سورة ص ، الآية ٨٢

وأفضل القول كتاب الله، والعمل الصالح به، لكتاب الله شأنه، والعمل الصالح قرين الإيمان وثمرته، ومراد الله ممن استخلصهم لنفسه، وكتب لهم الفلاح، ووراثة الفردوس والخلود فيه يوم يقوم الناس لرب العالمين.

قال تعالى: «إنما أمرت أن أعبد رب هذه البلدة الذى حرّمها وله كل شيء، وأمرت أن أكون من المسلمين * وأن أتلو القرآن»[1].

فتلاوة القرآن فى هذا السياق، بين أوامر الله لمصطفاه، شاهد لايدفع على فضل القرآن، وتقديم ذكر الله به على ما سواه، ففى القرآن ذكر، وفى القرآن مجال تدبر وفكر، وفى القرآن شفاء لما فى الصدور، وشفاء للأجسام نفسها حين تتطهر الأرواح وتتزكى عن الدنس، وتدع ماحرّم الله من طعام وشراب، وشهوات غير مشروعة، فتصح وتسلم وتقوى على تكاليف الإيمان والحياة مع هدايات القرآن، والمؤمن يحرص على أن يكون على نهج الإسلام، وهو يقرأ فى كتاب الله صفات المسلمين، وصفات عباد الرحمن، وصفات المؤمنين حقاً «وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً»[2].

«ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق، ولايكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم وكثير منهم فاسقون * اعلموا أن الله يحيى الأرض بعد موتها قد بيَّنا لكم الآيات لعلكم تعقلون»[3]:

لقد بيَّن الله — وله الفضل والمنَّة — بما لا مذهب لمتصف عنه، أنه سبحانه كما يحيى الأرض بعد موتها بالماء، فتهتز بالزرع، وتسخو بما ينفع الناس، فهو يحيى القلوب القاسية، والأفئدة المتمرِّدة الجاسية، بالإيمان الذى تفيضه علينا تلاوة القرآن الذى أمر الله به مصطفاه: «وأن أتلو القرآن»[4].

(١) سورة النمل، الآيتان ٩١ و ٩٢ (٢) سورة الأنفال، الآية ٣

(٣) سورة الحديد، الآيتان ١٦ و ١٧ (٤) سورة النحل، الآية ٩٢

.. أجل كان صلوات الله عليه يتلو القرآن حق تلاوته ، حتى قالت أم المؤمنين عائشة فى جواب من سألها عن خلق رسول الله صلى الله عليه وسلم : (كان خلقه القرآن) أحق الرسول حقه ، وأبطل ما أبطله ، ودعا به إلى الله الذى قال : « فذكر بالقرآن من يخاف وعيد »[١] .

« وذكِّر به أن تُبسل نفس بما كسبت »[٢] .

أى لئلا تهلك بسوء عملها .

« وأُوحى إلىَّ هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ .. »[٣] .

وتجاوب نفس النبى بالقرآن علماً وعملا ، كان قدوة لصحابته رضوان الله عليهم أجمعين ، فلقد علمت أن أبا بكر كان بكّاء بالقرآن ، وهذا عمر رضوان الله عليه يقول : (اللهم ارزقنى التفكير والتدبر لما يتلوه لسانى من كتابك ، والفهم له ، والمعرفة لمعانيه ، والنظر فى عجائبه ، والعمل بذلك ما بقيت ، إنك على كل شىء قدير) .

وكلام أبى الحسن علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه عن القرآن ، ومأثرة عثمان بالمصحف الإمام ، والتزام قراءته حتى فى اللحظات التى لقى الله فيها ، وكلام ابن مسعود ، وابن عباس ، ومن لا يُحصى من هؤلاء الأبرار ، إيماءة سريعة إلى ارتباطهم بالقرآن ، فهل يلزم الخلف سبيل السلف واعين .

---

(١) سورة ق ، الآية ٤٥

(٢) سورة الأنعام ، الآية ٧٠

(٣) سورة الأنعام ، الآية ١٩

القرآن يرسى قواعد الحياتين

إن المؤمنين ليتحدثون عن القرآن الكريم بحفاوة وإعزاز ، ويتصل منهم الحديث ، ويجاوز الأمصار والقرون ، وتتعدد نظرات الإعجاب ، وخطرات الإعزاز والإكبار ، ولكنهم لا يبلغون من ذلك عشر معشار مايقال فى كتاب الله تعالى ، الذى يقول فيه السيد مصطفى صادق الرافعى : (لا جرم أن القرآن سر السماء ، فهو نور الله فى أفق الدنيا، حتى تزول، ومعنى الخلود فى دولة الأرض إلى أن تدول) .

وإن للمسلمين فى القرآن لشرفاً نابهاً ، وذكر حسناً ، يترددان فى آيات منه ، وراء آيات ، وفيه ذكريات ومثلات يلوح منها نور الحق ، فى اللحظة التى يبدو منها كدر الباطل وقتامته :

« ليهلك من هلك عن بينة ويحيا من حىّ عن بينة »(١) .

وأى شرف يوضع فى كفة ميزان أمام مثل قول الله تعالى :

« وإنه لذكر لك ولقومك »(٢) .

وقوله : « لقد أنزلنا إليكم كتاباً فيه ذكركم أفلا تعقلون »(٣) .

والقرآن الكريم يتابع مسيرة الإنسان بدءًا ونهاية ومصيراً ، ويحدثه عن وحدة الأصل مع الذين هم وإياه لبنات فرصة حياتهم ، وعناصر مجتمعهم القائم ، وهى ووحدة النشأة ووحدة المصير من الخير أن نأخذها

---

(١) سورة الأنفال ، الآية ٤٢ (٢) سورة الزخرف ، الآية ٤٤
(٣) سورة الأنبياء ، الآية ١٠

مع ما نأخذ من هدايات الكتاب المبين ، حتى تتحقق الأخوة الجامعة التى حصَر الله فيها المؤمنين بقوله : « إنما المؤمنين إخوة »[١] .

ويذكر أننا جميعاً لآدم كما قال رب العالمين : « يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم ، إن الله عليم خبير »[٢] .

ولقد نزل القرآن مصداق قول الله تعالى :

« وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم .. »[٣] .

والذين يعرفون ضيوف الرحمن ، ووفد الرحمن فى بلده الأمين ، وفى مناسك الحج ومدينة الرسول صلوات الله عليه ، من الصين واليابان وأوربا وأفريقيا ومختلف جوانب هذا الكوكب ، يدركون أن القرآن ، بلغته العربية ، قد جاب أقطار الدنيا ، وتجاوز ديار العرب ، وعبر الأبعاد المترامية الأطراف ، بعد أن كان هدية الله إلى أهل لغته ، لأنه كتاب الدين العام ، ودستور الذين يتبعونه عرباً وعجماً وبيضاً وسوداً ، وصدق الله العظيم : « تبارك الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً »[٣] .

والمسلمون بكل مكان ، يكونون الأمة التى نزل القرآن بلغتها ، واختار منها نبى الإنسانية بأسرها ، منذ حملت الرسالة وكتابها إلى شتى الآفاق ، وعلمت الناس كيف تكون عبادة الله ، وكيف يكون تعامل عباده بعضهم وبعض ، ومرة أخرى فهما استبحر بنو الإنسان فى العلوم ، وحصلوا منه الشأو الرفيع ، فإنهم لا يحيطون بعطاء القرآن للحياة والأحياء ، وسيبقى القرآن سباقاً إلى ذرى العلم ، ومن ورائه أبداً قوافل المشمرين فى ميادين الكشوف العلمية وفى الأنفس والآفاق ، لأنه كتاب الله الذى أحاط بكل شىء علماً ، ولاتخفى عليه خافية فى الأرض ولا فى السماء .

---

(١) سورة الحجرات ، الآية ١٠
(٢) سورة الحجرات ، الآية ١٣
(٣) سورة إبراهيم ، الآية ٤
(٤) سورة الفرقان ، الآية ١

« ولو أن ما فى الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله »[١] .

« قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربى لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربى ولو جئنا بمثله مدداً »[٢] .

ويقول : « وما أوتيتم من العلم إلا قليلا »[٣] .

والقرآن الكريم يحدو قافلة الذين يسبرون أغوار الكائنات ، ويحاولون الإفادة من كل ما خلق الله فى أرضه وسمائه ، من حيوان ونبات وجماد وأفلاك وظواهر كونية ، وعوالم عليا ، ودنيا تميط الأيام عنها لثاماً وراء لثام ، فيبدو العجب العجاب الذى تقول معه :

« هـذا خلق الله فأرونى ماذا خلق الذين من دونه »[٤] .

أجل .. ماذا خلق الذين من دونه ، وآيات الله وكلماته ما زالت تتحدى العتاة ، ويزداد بها الذين آمنوا إيماناً .

« إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له ، وإن يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه ، ضعف الطالب والمطلوب »[٥] .

إن القرآن ، وهو سهل المدرك ، وفى متناول الأسوياء هداياته ، يلقى فى بعض الأوساط جهلا بما قدمه ويقدمه للحياة والأحياء ، من صور السلوك والعلاقات ، وقواعد بقاء المجتمع الأمثل .

وتراهم يجادلون فى حقيقة أن الإسلام عقيدة وعبادة ، وأنه شريعة وحكم ، تبرز الشورى فيه بين قواعد الإسلام الضرورية ، فى مثل قوله تعالى : « والذين استجابوا لربهم وأقاموا الصلاة وأمرهم شورى بينهم ومما رزقناهم ينفقون »[٦] .

(١) سورة لقمان ، الآية ٢٧
(٢) سورة الكهف ، الآية ١٠٩
(٣) سورة الإسراء ، الآية ٨٥
(٤) سورة لقمان ، الآية ١١
(٥) سورة الحج ، الآية ٧٣
(٦) سورة الشورى ، الآية ٣٨

وفى أمر الله رسوله أن يشاور أصحابه فيما لم يوح إليه فيه وحى فى قوله تعالى : « فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم فى الأمر ، فإذا عزمت فتوكل على الله ، إن الله يحب المتوكلين »(١) .

الشورى الحقة أسلوب يأخـــذه المسلمون فى شتى عصورهم ودورهم سبيلا للوجود السعيد والعيش الرغيد ، والحياة التى ينزل الناس فيها بعلمهم وكفايتهم منازلهم ، والله تعالى يقول : « ولكلٌ درجات مما عملوا .. »(٢) .

.. والقرآن الكريم كتاب الأزل والأبد ، وهى شهادة تقنع على صحة نسبه ، ونبل مصدره :

« ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً »(٣) .

لكنه تحـدث حـديث الصدق والأمانة عن رسـول الله وأنبيائه بكل ما يجب لهم من إكبار وتوقير ..

وحرص على أن يضع الإنسـان أمام مسئوليته عن عقيدته وتصرفاته جميعاً ، وهو يرهف سمعه إلى صوت الفطرة فيـه ، ويهتف به : « فاعبـد الله مخلصاً له الدين * ألا لله الدين الخالص »(٤) ويقول : « وما أُمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة وذلك دين القيمة »(٥) .

.. ومنذ خلقنا الله ، وهدانا إلى ذلك الدين ، والقرآن الكريم يتعاهد المسلمين بأوامر الله ونواهيه التى تحفظ على الإنسان إنسانيته ، وترسم له الطريق الذى يلحظ قواه واستعداداته لأداء واجباته ، وأخذ ضرورات بقائه .

.. وليس قصص القرآن عمن آمن برسل الله ومن كفر بهم صلوات

(١) سورة آل عمران ، الآية ٥٩
(٢) سورة الأحقاف ، الآية ١٩
(٣) سورة النساء ، الآية ٨٢
(٤) سورة الزمر ، الآيتان ٢ و ٣
(٥) سورة البينة ، الآية ٥

الله عليهم ، مجرد أحاديث للتسلى ، وإزجاء الفراغ ، ولكنها منهج فى التربية وضرب فى الإصلاح والتقويم كريم ..

« لقد كان فى قصصهم عبرة لأولى الألباب ، ما كان حديثاً يفترى ولكن تصديق الذى بين يديه وتفصيل كل شىء وهدى ورحمة لقوم يؤمنون »(١) .

« إن هذا القرآن يقص على بنى إسرائيل أكثر الذى هم فيه يختلفون * وإنه لهدى للمؤمنين »(٢) .

وفى الصحيحين عن جبير بن مطعم رضى الله عنه قال : (سمعت النبى صلى الله عليه وسلم يقرأ فى المغرب (الطور) فلما بلغ هذه الآية : « أم خلقوا من غير شىء أم هم الخالقون * أم خلقوا السموات والأرض بل لا يوقنون * أم عندهم خزائن ربك أم هم المصيطرون »(٣) قال : كاد قلبى أن يطير إلى الإسلام) ! !

وقد كان من العرب من شف وجدانه ، وصدق فى فترة من الزمان شعوره وحي ضميره ، فقال فى القرآن : (إن له لحلاوة) ، فلما انتكست فطرته ، وغلبت عليه شقوته ، قال : « إن هذا إلا سحر يؤثر * إن هذا إلا قول البشر »(٤) .

قال أبوجهل فى ملإ من قريش : قد التبس علينا أمر محمد ، فلو التمستم لنا رجلا عالماً بالشعر والكهانة والسحر فكلمه ثم أتانا ببيان عن أمره ! ! فقال عتبة بن ربيعة : والله لقد سمعت الشعر والكهانة والسحر وعلمت من ذلك علماً وما يخفى علىّ ، فأتاه فقال : أأنت يامحمد خير أم هاشم ؟ أأنت خير أم عبد المطلب ؟ أأنت خير أم عبد الله ؟

---

(١) سورة يوسف ، الآية ١١١ (٢) سورة النمل ، الآيتان ٧٦ و ٧٧
(٣) سورة الطور ، الآيات ٣٥ – ٣٧ (٤) سورة المدثر ، الآيتان ٢٤ و ٢٥

فلم تشتم آلهتنا وتضللنا ؟! فإن كنت تريد الرئاسة عقدنا لك اللواء فكنت رئيسنا ، وإن تك بك الباءة زوّجناك عشر نسوة تختار من أى بنات قريش شئت .. وإن كان بك المال جمعنا لك من أموالنا ما تستغنى به .

ورسول الله صلى الله عليه وسلم ساكت ، فلما فرغ قال صلى الله عليه وسلم : « بسم الله الرحمن الرحيم : حم * تنزيل من الرحمن الرحيم ... » . حتى وصل قوله تعالى : « فإن أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود .. الآيات »(٣) .

فأمسك عتبة على فيه وناشده الرحم .. ورجع إلى أهله ولم يخرج إلى قريش ، فلما احتبس عنهم قالوا : ماترى عتبة إلا قد صبأ .. وأتوه وحدثوه بما قالوا ، فقال : والله لقد أجابنى بشىء ما هو بشعر ولا كهانة ولا سحر.

أجل ما هو إلا القرآن ، يرسى قواعد الدين والدنيا ، ويضع منهاج الحياة المثلى ، ويهدى للتى هى أقوم .

---

(٣) سورة فصلت ، الآيات ١ — ١٧

ما زال القرآن يتحدى

لقد بلغ الرسول ، صلوات الله عليه، ما نزل إليه من ربه، وما تقوّل في حرف واحد على الله . وصدق الله العظيم : « ولو تقوّل علينا بعض الأقاويل * لأخذنا منه باليمين * ثم لقطعنا منه الوتين * فما منكم من أحد عنه حاجزين »(1) .

فهل صنع الله شيئاً من ذلك بمصطفاه ، حاشا لله ، فلو أن أيسر ذلك كان لتناقله الرواة ، وتحدث به عداه ، والأعداء كلفون أبداً بالتجني والافتراء ، ونسج الأكاذيب ، وتولى كبرها ، لكن شرك المشركين كان إلى جواره فيهم ، شرف نفس غالباً يعصمهم كثيراً من الكذب على رسول الله صلوات الله عليه ، والله تعالى يقول لرسوله صلى الله عليه وسلم : « فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون »(2) .

ولقد عرفوا رسول الله صلوات الله عليه، منذ فجر حياته ، وميعة صباه الصادق ، وصارحوا بذلك في غير موقف ، وليس سراً يوم الحجر الأسود وخلافهم فيمن يكون له شرف وضعه بمكانه إلى يوم القيامة ، حتى حكّموا أول داخل ، فكان محمداً ، وقالوا بلسان رجل واحد : هذا هو محمد ، هذا هو الصادق ، قد رضيناه حكماً ! !

وعتبة بن ربيعة قد قال في آخر كلامه عن رسول الله ، بعد أن لقيه وسمع منه ما سمع — من صدر سورة فصلت — قال لقومه : وقد علمتم أن محمداً إذا قال شيئاً لم يكذب .

---

(1) سورة الحاقة ، الآيات ٤٤ — ٤٧ (2) سورة الأنعام ، الآية ٣٣

فكيف كذّبوه ؟!.

إن تكذيبهم لرسالة الرسول ، زراية وامتهان لأنفسهم ، وليس ذلك بقادح فى كمال النبى صلوات الله وسلامه عليه .

ولما سمع الوليد بن المغيرة من النبى صلى الله عليه وسلم قول الله تعالى: « إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون »(١) .

قال : (والله إن له لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإن أعلاه لمثمر ، وإن أسفله لمغدق ، وما هو بقول بشر) .

والرجل — لاريب — من البشر ، وهو عربى قح ، ومن هؤلاء الذين عرفوا شعر الشعراء، ورجز الراجزين،وكهانة الكهان ، وتهاويم السحرة، وهو واحد ممن عادوا محمداً ، صلوات الله عليه ، وكذبوه حتى تحداهم — بأمر ربه — بأن يأتوا بمثل هذا القرآن، وأن يستعينوا على ذلك بكل من يعين من الإنس والجن ، فإن عجزوا — وهم عاجزون كما علم الله منهم وأخبر عنهم ، ودل على ذلك واقعهم — فليأتوا بعشرسور مثله مفتريات، فإن هم عجزوا ، فليأتوا بسورة من مثله ، ولم يفعلوا ، وما زال التحدى قائماً اليوم وغداً ، وإلى يوم يبعث الناس .

وإن السورة لتصدق على قوله تعالى : « إنا أعطيناك الكوثر * فصلّ لربك وانحر * إن شانئك هو الأبتر»(٢) .

فهى أقصر سور قصار الفصل ، وتمثل سطراً واحداً فى المصحف، وقد أخلصها الله بحكمته لنبيه صلوات الله عليه ، ففيها عطاؤه تبارك وتعالى، وتوجيهه لمصطفاه ، ووضع أعدائه ، القائلين فيه بالإثم والهوى ، فى

---

(١) سورة النحل ، الآية ٩٠

(٢) سورة الكوثر ، الآيات ١ — ٣

مواضعهم ، من انعدام البركة ، وانقطاع العقب ، وامتناع حسن الذكر ، وطيب الأحدوثة ، فأين هم وقد صاروا مثلا فى الغابرين وصرعى فى سراديب هواهم ، وقتلى .. ولا كرامة .. فى ميادين قتالهم لله ولرسوله وللمؤمنين ، أين هم من محمد صلى الله عليه وسلم ، وقد أجاب ربنا دعاه ، ومازال ، وسيبقى ، كما شاء الله ، يتردد اسمه على ملايين الشفاه كل لحظة ذكر فيها الأبرار ربهم ، وتقترن الشهادة له ، صلى الله عليه وسلم ، بالنبوة ، كلما شهد شاهد لله بالوحدانية :

وشـــقّ له من اسمـــه ليجله فذو العرش محمود وهـذا محمد

ما يزال التحدى بالقرآن قائماً ، وليجرب الآن وغداً وإلى قيام الساعة ، من شاء فى المؤسسات العلمية فى شرق وغرب وبكل مكان ، فإنه سيبوء — فرداً كان أو معشراً وقبيلا — بأضعاف ما باء به أُولوا الفصاحة من العرب الذين نزل القرآن بلغتهم وهم شهود .

وكان النضر بن الحارث منصفاً حين أنكر من قومه تكذيبهم لرسول الله صلوات الله عليه ، وجاهرهم بذلك وهو يقول كلمته المأثورة : (لقد كان محمد فيكم غلاماً حدثاً ، أرضاكم قولا ، وأصدقكم حديثاً ، فلما بدا فى صدغيه عارض الشيب ، وجاءكم بما جاءكم به ، قلتم إنه كاذب ، والله ما هو بكاذب ، والله ما هو بكاذب ، والله ما هو بكاذب) .

ثم عاود الرجل ضلاله فقال ما حكى الله عنه : « وإذا تتلى عليهم آياتنا قالوا قد سمعنا لو نشاء لقلنا مثل هذا ، إن هذا إلا أساطير الأولين * وإذ قالوا اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم »[١].

ويا عجباً .. فلو أن القوم قالوا : اللهم إن كان هـذا هو الحق من

(١) سورة الأنفال ، الآيتان ٣١ و ٣٢

عندك فاهدنا إليه ، وألزمنا كلمته ، لحقق الله سؤلهم ، وبلغهم أملهم ، ولكنها الأحقاد وسخائم النفوس التي تصنع دون الإنصاف سدوداً حاجزة .. وصدق الله العظيم : « فإنهم لايكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون * ولقد كذبت رسل من قبلك فصبروا على ما كذبوا وأوذوا حتى أتاهم نصرنا ولامبدل لكلمات الله ولقد جاءك من نبإ المرسلين »[١] .

ولقد حل بالقوم ما استعجلوا وسألوا من عذاب الله : « ويستعجلونك بالسيئة قبل الحسنة وقد خلت من قبلهم المثلات »[٢] .

ولقد قال قوم شعيب له : « فأسقط علينا كسفاً من السماء » .

وموقف النضر وأمثاله يسترعى الانتباه إلى جلال القرآن ، وحديثه الصادق عن رسل الله وأقوامهم ، من آمن منهم ومن كفر . فقد أورد الإمام القرطبي فى تفسيره عن ابن عباس رضى الله عنهما أنه لقى رجلا من يهود ، فقال اليهودى له : ممن أنت ؟ قال ؟ من قريش . فقال اليهودى : من القوم الذين قالوا : « اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك .. الآية » ؟

فهلا قالوا : اللهم إن كان هـذا هو الحق من عندك فاهدنا له ؟ إن هؤلاء قوم يجهلون . قال ابن عباس : وأنت يا إسرائيلى ، من القوم الذين لم تجف أرجلهم من بلل البحر الذى أغرق فيه فرعون وقومه ، وأنجى موسى وقومه ، حتى قالوا : « اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة » . فقال لهم موسى : « إنكم قوم تجهلون »[٣] .

فأطرق اليهودى مفحماً .

إنه القرآن يقص قصص من غبروا بصدق وأمانة ، ويتدارك بحجته من يذودون عن الحق ، ويدعون إليه ويعملون به .

---

(١) سورة الأنعام ، الآيتان ٣٣ و ٣٤ (٢) سورة الرعد ، الآية ٦

(٣) سورة الأعراف ، الآية ١٣٨

إنه القرآن الذى عرفوه ومن دونه كل قول، وهو يعلو سائر الكلام، ذلك قولهم : « لولا نزِّل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم »(١) .

معرفة لم تخف ، واعتراف بعظمة القـرآن تستعلن وتتوارى حيناً وحيناً . وفى قولهم « هـذا القرآن » كل معانى التقدير والإكبار واستشعار عظمته وقيمته وعلو قـدره ، لاينقمون منه إلا مجرد إيثار الله مصطفاه بإنزاله عليه وإرساله به رحمة للعالمين، ولهذا جاء رد الله الذى يعلم من خلق: « الله أعلم حيث يجعل رسالته »(٢) فقال تعالى: « أهم يقسمون رحمة بك»(٣)

فيريدون أحد رجلين، من مكة أو الطائف، ليكون نبياً دون محمد، صلى الله عليه وسلم ، وكيف سوّلت لهم أنفسهم أن يكون لهم مع مشيئة الله مشيئة ؟! وأن يكون لهم غير مراده تعالى مراد ؟!.

« وما تشاءون إلا أن يشاء الله » .

ومن ذا الذى يستطيع أن يعطى من رزق الله وتوفيقـه ما لم يقسم الله لحى ؟!

ومن ذا الذى يستطيع أن يمنع إنساناً ما منحه الله الذى يقول:

« وإن من شىء إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم »(٤) .

« نحن قسمنا بينهم معيشتهم فى الحياة الدنيا .. »(٥) .

أى إذا لم يكن أمر الدنيـا إليهم ، فكيف يتطاولون ويتناولون أمر النبوَّة ، فيرونها أخلق بفلان وأليق بذلك الإنسان ؟!.

إن ناساً من غير المسلمين عرفوا الله من كلامه ، وقادتهم بلاغة القرآن ومغازيه وجليل معانيه إلى إعلان ذلك والتحدث به فى وضوح .

فأين المسلمون وأين أدعياء المعرفة والعلم ؟

---

(١) سورة الزخرف ، الآية ٣١
(٢) سورة الأنعام ، الآية ١٢٤
(٣) سورة الزخرف ، الآية ٣٢
(٤) سورة الحجر ، الآية ٢١
(٥) سورة الزخرف ، الآية ٣٢

من ملامح المؤمن فى كتاب الله

يبرز الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، شاهدين من شواهد إيمان المؤمن ، فى آيات ذوات عدد من كتاب الله ، من ذلك قوله تبارك وتعالى : « والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض ، يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله ، أولئك سيرحمهم الله إن الله عزيز حكيم »[1] .

فتدبر كيف سبق وصفهم بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، على قواعد الإسلام من صلاة وزكاة ؟ بل على عموم طاعة الله التى منها الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، لا ريب ؟ وكيف أوجب الله لهم رحمته سبحانه على هذا النحو من التسويف الذى يقول فيه الإمام القرطبى :

(مُدخَلة فى الوعد مهلة لتكون النفوس تتنعم برجائه ، وفضله تعالى زعيم بالإنجاز) .

وتأمل كيف جعل الله أمة محمد ، صلى الله عليه وسلم ، خير الأمم ، فإنها تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر وتؤمن بالله ؟! فقال تعالى : « كنتم خير أمة أُخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله »[2] .

فإن تأمل هذه الآية ، واستكناه تقدم الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر على الإيمان بالله تعالى ، يلقى فى النفس حقيقة أن الإيمان بالله ، لايبالى الله به حتى تأمر بما عرف فى ضوء الدين والفطرة السليمة ، أنه خير وإصلاح ،

(١) سورة التوبة ، الآية ٧١ (٢) سورة آل عمران ، الآية ١١٠

وحتى ننهى عن كل ما عرف بالدين والفطرة ، إنه منكر تحتويه الأنفس السوية وتأباه .

والسنة المطهرة تجلو أركان الاسلام ، وقواعد الملة ، فى مثل قول النبى صلى الله عليه وسلم : (بنى الإسلام على خمس : شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وصوم رمضان ، وحج البيت لمن استطاع إليه سبيلا) متفق عليه .

ويكاد الأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر ، لمكانهما فى القرآن والسنة ، أن يكونا الركن السادس بعد هذه الخمس ، فإن مجتمعاً من المجتمعات لا يأخذ فيه الأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر ، والتواصى بالحق ، والصدق فى النصح ، ما هى أحق به من رعاية واهتمام ، تحركه الفوضى ، ويفوته النظام ، ويكون فيه المنكر معروفاً والمعروف منكراً ، ورضى الله عن الصحابى الجليل معاذ بن جبل فقد قال : (هلك من ليس له قلب يعرف به المعروف وينكر به المنكر) .

وإذا كان هذا فى الفرد فإنه كذلك فى المجتمعات والشعوب ، والحديث الطويل الذى خرّجه الإمام العراقى مما روى الإمام الغزالى فى الإحياء يقول فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم : (كيف أنتم إذا لم تأمروا بمعروف ولم تنهوا عن منكر ؟ فقالوا : أو كائن ذلك يارسول الله ؟ قال : نعم والذى نفسى بيده ، وأشد منه سيكون ، قالوا : وما أشد منه ؟ قال : كيف أنتم إذا رأيتم المعروف منكراً والمنكر معروفاً ؟ قالوا : أو كائن ذلك يارسول الله ؟ قال : نعم والذى نفسى بيده ، وأشد منه سيكون ، قالوا : وما أشد منه ؟ قال : كيف أنتم إذا أمرتم بالمنكر ونهيتم عن المعروف) ؟!

وما كان خير الناس قرنه عليه الصلاة والسلام ، ثم الذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم (إلا لأنهم كانوا يعرفون المعروف ويتهادونه ، ويعرفون

المنكر ويتحامونه ويتناهون عنه) . ورضى الله عن ابن عمر ، فقد كان يقول : (أيها الناس تهادوا النصائح ، كما تتهادون الأطباق).

إنما يرتقب الأفراد والشعوب والأمم أن يصيبها ما أصاب بنى إسرائيل من هلاك وضياع بما قال الله تعالى : «لُعِنَ الذين كفروا من بنى إسرائيل على لسان داود وعيسى ابن مريم ، ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون * كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه ، لبئس ما كانوا يفعلون »(١).

عن ابن مسعود رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (إن أول ما دخل النقص على بنى إسرائيل ، أنه كان الرجل يلقى الرجل فيقول : ياهذا ، اتق الله ودع ماتصنع فإنه لا يحل لك ، ثم يلقاه من الغد وهو على حاله ، فلا يمنعه ذلك أن يكون أكيله وشريبه وقعيده ، فلما فعلوا ذلك ضرب الله قلوبهم بعضهم ببعض ثم قال : « لُعِنَ الذين كفروا من بنى إسرائيل على لسان داود وعيسى ابن مريم ، ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون * كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه ، لبئس ما كانوا يفعلون * ترى كثيراً منهم يتولون الذين كفروا لبئس ما قدمت لهم أنفسهم أن سخط الله عليهم وفى العذاب هم خالدون * ولو كانوا يؤمنون بالله والنبى وما أنزل إليه ما اتخذوهم أولياء ولكن كثيراً منهم فاسقون »(١) .

ثم قال النبى صلى الله عليه وسلم : (كلاّ والله لتأمرنّ بالمعروف ولتنهونّ عن المنكر ولتأخذنّ على يد الظالم ، ولتأطرنه على الحق أطراً ، ولتقصرنه على الحق قصراً ، أو ليضربن الله بقلوب بعضكم على بعض ، ثم يلعنكم كما لعنهم) .

ولتأطرنه : لتعطفنه .. ولتقصرنه : تحبسنه على الحق .

إن ناساً كثيرين يضعون أنفسهم موضع الناصح الحفى للآخرين ،

---

(١) سورة المائدة ، الآيات ٧٨ — ٨١

ويقحمون أنفسهم إقحاماً بين الآمرين بالمعروف والناهين عن المنكر ، وهم لم يصلحوا المنهار من جوانب أنفسهم ، ولم يمنعوها عن المنكر ، ولم يلزموها المعروف ، ولقد ضرب لهؤلاء مثل حجز السنّ الذى يسنّ الحديد ولايقطع كما قال الإمام أبو حامد الغزالى رحمه الله .

فلقد أرسل إليه أحدهم يستنصحه ، ويطلب موعظة من مواعظه ، فكتب إليه : (بسم الله الرحمن الرحيم ، سلام عليك ، أما بعد ، فإن الوعظ زكاة نصابها الاتعاظ ، وفاقد الشيء لا يعطيه .

ويا حجر السنّ حتى متى تسنّ الحديد ولا تقطع

والسلام .

إن الأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر ، أطيب الفعال ، وأزكى الأعمال ، وخير ما يتهاداه الخيار فى كل زمان ، وصدق الله العظيم : « لا خير فى كثير من نجواهم إلا من أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس ، ومن يفعل ذلك ابتغاء مرضات الله فسوف نؤتيه أجراً عظيما »[1] .

فاعرف نفسك بين هؤلاء .

---

(١) سورة النساء ، الآية ١١٤

الفصل السادس

- الحفاوة بالمرسلين فى كتاب الله .
- بعض أهل الكتاب فى القرآن .

الحفاوة بالمرسلين فى كتاب الله

كان أصحاب رسـول الله صلى الله عليه وسلم لا يتفرقون من اجتماع ، حتى يقرأ أحدهم على أخيـه قول الله تعالى : « والعصر * إن الإنسـان لفى خسر * إلا الذين آمنـوا وعملوا الصالحات * وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر »[1] .

والسورة على وجازتها ، وقلة كلماتها ، شاهدة بإعجاز القرآن ، فآياتها تجمع خيرى الدين والدنيا ، وتضع قيد الأبصار والبصائر أسباب الفلاح وعناصر السعادة فى العاجلة التى تفضى بالمؤمن لاريب إلى مزيد رضى الله تعالى فى الآجلة .

وماذا وراء الإيمان والعمل الصالح ، والتواصى بالحق ، والتواصى بالصبر ؟

والتواصى بالحـق هو الأمر بالمعـروف والنهى عن المنكر ، وهو فى هذا السياق حين نجتمع وحين نتفرق ، ويمضى كل فى وجهته ، دعوة جهيرة إلى أن يذكر المؤمن أخاه بما ينبغى أن يذكره به ، خير يفيض فيه أو شر يتجنبه ويتحاشاه ، فالمرء لايرى عيب نفسه ، وقديماً قيل : (صديق لك كلما لقيك ذكرك بعيب فيك ، خير من صديق لك كلما لقيك وضع فى كفك ديناراً) .

إن الدينار فى بعض الأعصار والأمصار قد يوفر طعاماً ، ويسد حاجة

(١) سورة العصر .

طارئة ، ثم لايبقى منه ما تنطوى عليه يد ، أو تثقل به حافظة نقود . لكن النصيحة تبقى ويرقى بها المؤمن صــعداً فى مدارج الفضل والكمال فى دينه ودنياه ، فى عاجل وآجل ، حتى وراء عتبات الحياة ، حين يفتح الله بها ميادين العمل الصالح ، والتصرف على هدى من الله ، ونور من الإيمان بالله تعالى ، إيماناً يستتبع ثمرته من العمل الصالح ، الذى هو باب رضى الله تعالى عن الصالحين ، أو مدرجة سخطه عز وجل على الغواة الضالين .

والتواصى بالحق والتواصى بالصبر ، من صالح العمل ، وجميل التصرفات ، لاريب ، وقد ذكرهما الله بخاصة بعد اندراجهما فى عموم العمل الصالح ، لخطرهما ، وعلو قدرهما ، ودورهما الباسل فى كمال الدين ، وصلاح الدنيا ، وتأهيلهما لرضوان الله يوم نلقاه ، وأهل المعروف فى الدنيا هم أهل المعروف فى الآخرة ، كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ولقد أنذر الله الذين قتلوا النَّصَحة الأوفياء من بنى إسرائيل فقال : « إن الذين يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير حق ، ويقتلون الذين يأمرون بالقسط من الناس فبشرهم بعذاب أليم »(١) .

والآية تؤكد أن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر كانا مما أوجب الله على الأمم السابقة ، وهذه بدهية — حقاً — فإن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وإسداء النصح للأفراد والجماعات ، كانت وظيفة المرسلين صلوات الله عليهم أجمعين ، وفى سورة الأعراف وحدها يقول الله تعالى من مقالة نوح لقومه : « أبلغكم رسالات ربى وأنصح لكم وأعلم من الله ما لاتعلمون »(٢) .

وقال هود عليه السلام لقومه : « أبلغكم رسالات ربى وأنا لكم ناصح أمين »(٣) .

---

(١) سورة آل عمران ، الآية ٢٦ (٢) سورة الأعراف ، الآية ٦٢
(٣) سورة الأعراف ، الآية ٦٨

وقال صالح لقومه : « لقد أبلغتكم رسالة ربى ونصحت لكم ولكن لا تحبون الناصحين »(١).

وقال شعيب لقومه : « لقد أبلغتكم رسالات ربى ونصحت لكم فكيف آسى على قوم كافرين »(٢) .

وهكذا كان كل نبي يقول لقومه ، حتى آخرهم محمد صلى الله عليه وسلم وهو يقول لهم فى أول لقاء جامع : (إن الرائد لا يكذب أهله) متفق عليه .

ولقد جمع الدين كله فى النصيحة فقال فيما روى أبو رقية تميم الدارى فى الصحيح : (الدين النصيحة ، قلنا : لمن يارسول الله ؟ قال : لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم) متفق عليه .

ووصف المؤمنين بأنهم (نصحة وادّون) .

وأوجب صلوات الله وسلامه عليه (النصح لكل مسلم) فى الحديث المتفق عليه ، وعلى طريق المرسلين أقوام انتصحوا ونصحوا ، وعرفوا الخير فألزموه أنفسهم ، ودعوا إلى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة وعرفوا الشر فعوّقوه ، ونهوا عنه وحذروا منه فكانوا أهل عدة الرسول صلى الله عليه وسلم فيما روى الحسن أنه صلى الله عليه وسلم قال : (من أمر بالمعروف ، أو نهى عن المنكر ، فهو خليفة الله فى أرضه ، وخليفة رسوله ، وخليفة كتابه) .

وعن ذرة بنت أبى لهب قالت : جاء رجل إلى النبى صلى الله عليه وسلم وهو على المنبر فقال : من خير الناس يا رسول الله ؟! قال : (آمرهم بالمعروف ، وأنهاهم عن المنكر ، وأتقاهم لله ، وأوصلهم لرحمه) .

والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر حق المسلم على المسلم فى حدود

(١) سورة الأعراف ، الآية ٧٩ (٢) سورة الأعراف ، الآية ٩٣

إمكانه وبقدر يقينه وإيمانه، وإلا فقد أوجبه الله على أقوام بأعيانهم يحيطون بجوانبه ، ويقدرون على الإقناع به وهم يدعون إليه ، قال تعالى : « ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون »[١] .

فصريح الآية يؤكد أن قوله تعالى « منكم » على التبعيض ، ويمكن أن تكون « منكم أمة يدعون إلى الخير » لبيان أنها جماعة منا ، صفتها وحالها الدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر التى استوجبت بها الفلاح صفة ومآلا .

وقد أورد الإمام القرطبى أنها للتبعيض وقال : (فإنه يدل على أن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فرض على الكفاية ، وقد عينهم الله تعالى بقوله : « الذين إن مكنّاهم فى الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور »[٢] .

قال : (وليس كل الناس مكنوا) . اهـ .

والآية التى استظهر بها الإمام القرطبى جاءت بعد قوله تعالى : « ولينصرن الله من ينصره ، إن الله لقوى عزيز »[٣] .

فليرج النصر الذى لا يملكه إلا الله ! من نصروه على أنفسهم وأهوائهم وتركوا كل شىء لأمر الله وتوجيهه ، أخذاً وتركاً :

« وما النصر إلا من عند الله » [٤] .

« يأيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم »[٥] .

إن المجتمع يكون متكافلا متواصلا ، كالبنيان يشد بعضه بعضاً ،

---

(١) سورة آل عمران ، الآية ١٠٤ (٢) سورة الحج ، الآية ٤١
(٣) سورة الحج ، الآية ٤٠ (٤) سورة آل عمران ، الآية ١٢٦
(٥) سورة محمد ، الآية ٧

وكالجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى ، حين يعطف الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر بعضه إلى بعض ، فلا فردية ، ولكن جماعية تتساند وتتهادى من المعنويات ماهو أعود بالخير من ماديات نفعها لا يدوم .

وعن الصديق أبى بكر خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم : يأيها الناس ، إنكم تقرأون هذه الآية : « يأيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم ... »(١) .

وإنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : (إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه ، أوشك أن يعمهم الله بعذاب منه) .

إن من الهدى الحق أن ننصح مترفقين ، وأن نأمر بالمعروف وننهى عن المنكر ، وندعو إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة صادقين ، فإن استجاب الآخرون سلموا من الشر وسلمنا وإلا حاق بهم العذاب ونجونا :

« فلما نسوا ما ذكروا به أنجينا الذين ينهون عن السوء وأخذنا الذين ظلموا بعذاب بئيس بما كانوا يفسقون »(٢) .

وكم هى دالة كلمة الخليفة أبو عبد الله المأمون بن هارون الرشيد ، لمن وعظه فأغلظ فى العظة قال له : يا هذا ، لقد أرسل الله عز وجل من هو خير منك إلى من هو شر منى فقال : « اذهبا إلى فرعون إنه طغى ، فقولا له قولا ليناً لعله يتذكر أو يخشى »(٣) .

وطوبى للآمرين بالمعروف ، والناهين عن المنكر فى نور القرآن .

---

(١) سورة المائدة ، الآية ١٠٥ (٢) سورة الأعراف ، الآية ١٦٥
(٣) سورة طه ، الآية ٤٤

بعض أهل الكتاب فى القرآن

أوجب الله الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، كما رأيت فى كل دين، وكانت النصيحة — كما علمت — عمل كل نبي ورسول، وهى فى حقيقتها أمر بمعروف ونهى عن منكر، وكما لعن الله تعالى فريقاً من بنى إسرائيل بأنهم كانوا لايتناهون عن منكر فعلوه، فلقد مدح منهم فريقاً، فقال تعالى: « من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون * يؤمنون بالله واليوم الآخر ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويسارعون فى الخيرات وأولئك من الصالحين »(1) .

والمؤمنون الذين باعوا الله أنفسهم فاشتراها منهم فى ميادين الجهاد، وساحات الاستشهاد، بأن لهم الجنة، وأنعم بها من ثمن، والجود بالنفس أقصى غاية الجود، هؤلاء وصفهم الله تعالى فقال : « التائبون العابدون الحامدون السائحون الراكعون الساجدون الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر والحافظون لحدود الله وبشر المؤمنين »(2) .

فكان وصفهم بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، مرتبطاً بحفظهم لحدود الله، فلا يأمرون إلا بخير، ولا ينهون إلا عن شر .

وهى فضيلة لم تفت لقمان عليه السلام، الذى آتاه الله الحكمة، فقد وصّى ابنه فيما وصاه فى كتاب الله بقوله: « يا بنى أقم الصلاة وأمر بالمعروف، وانه عن المنكر واصبر على ما أصابك، إن ذلك من عزم الأمور »(3).

---

(1) سورة آل عمران، الآيتان ١١٣ و ١١٤

(2) سورة التوبة، الآية ١١٢ (3) سورة لقمان، الآية ١٧

وإذا كانت الصلاة عماد الدين، وكان الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد ، وكان نصف الإيمان، فإن الله تعالى قد جعل الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر واسطة العقد بين الصلاة وبين الصبر ، وكان مع صاحبيه من جلائل الصفات التى يشق على النفس بلوغها إلا بعون يأتيه من الله الذى لايعجزه شىء فى الأرض ولا فى السماء . ألا وإن من ترك الأمر بالمعروف والنهىعن المنكر ، لم يكن ممن اهتدى الصراط المستقيم ، وقد أمضى الله سنته فى الأمم السابقة ، فحفظ من السوء من أمروا بالمعروف وحذروا الناس من مصاير الإثم . قال تعالى : « فلولا كان من القرون من قبلكم أولوا بقية ينهون عن الفساد فى الأرض إلا قليلا ممن أنجينا منهم واتبع الذين ظلموا ما أترفوا فيه وكانوا مجرمين ، وماكان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون »[1] .

(ولولا) إن كانت بمعنى « هلا » للتخصيص ، أو كانت نافية ، فإنها تقرر أن الله تعالى ينجى الذين اتقوا الشر ، ونهوا عنه . والله تعالى يقول : « فلولا كانت قرية آمنت فنفعها إيمانها إلا قوم يونس لما آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزى فى الحياة الدنيا ومتعناهم إلى حين »[2] .

قال الطبرى : (خصّ قوم يونس من بين سائر الأمم بأن تيب عليهم بعد معاينة العذاب) .

والمؤمن يباعد نفسه عنالأئمة العصاة جهد استطاعته ، إن لم يستطيع أن يحول بينهم وبين آثامهم ، قال تعالى : « وإذا رأيت الذين يخوضون فى آياتنا فأعرض عنهم حتى يخوضوا فى حديث غيره ، وإما ينسينك الشيطان فلا تقعد بعد الذكرى مع القوم الظالمين »[3] .

---

(١) سورة هود ، الآية ١١٦ (٢) سورة يونس ، الآية ٩٨

(٣) سورة الأنعام ، الآية ٦٨

وقال سبحانه : « وقد نزل عليكم فى الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهزأ بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا فى حديث غيره ، إنكم إذن مثلهم ، إن الله جامع المنافقين والكافرين فى جهنم جميعاً »[١].

قال الإمام القرطبى : فدلّ بهذه الآية على وجوب اجتناب أصحاب المعاصى إذا ظهر منهم منكر ، لأن من لم يجتنبهم فقد رضى فعلهم ، والرضا بالكفر كفر ، قال تعالى : « إنكم إذن مثلهم » فكل من جلس فى مجلس معصية ولم ينكر عليهم يكون معهم فى الوزر سواء ، وينبغى أن ينكر عليهم إذا تكلموا بالمعصية وعملوا بها ، فإن لم يقدر على النكير عليهم فينبغى أن يقوم عنهم حتى لا يكون من أهل هذه الآية ، وقد روى عن عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه أنه أخذ قوماً يشربون الخمر ، فقيل له عن أحد الحاضرين : إنه صائم ، فحمل عليه الأدب وقرأ هذه الآية : « إنكم إذن مثلهم » !!.

وهى مثلية على كل حال ، وإن لم تكن فى جميع الصفات ، وقديماً قيل : (عرفنى من تصاحب أعرفك من أنت) ؟!.

وإنه لنفاق أن يجالس المرء من ليس على شاكلته ، من خشية الله وتقواه دون نصيحة ، وهو ما أفهمه من اقتران المنافقين بالكافرين ، وتقديمهم عليهم فى هذا السباق .. والناس فى فرصة الحياة الواحدة مشتركون فى أنعم الله تعالى يتقاسمونها على أساس من قوله تعالى :

« نحن قسمنا بينهم معيشتهم فى الحياة الدنيا »[٢] .

وهم مشتركون فى مقتضيات الخلافة عن الله بقدر مازودهم به الله من وسائل ، وحاجتهم إلى نصح بعضهم بعضاً ، عصمة للجميع ، وأمنة من هلاك وضياع ، وقد أخرج الإمام البخارى عن النعمان بن بشير رضى الله

---

(١) سورة النساء ، الآية ١٤٠ (٢) سورة الزخرف ، الآية ٣٢

عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (مثل القائم فى حدود الله ، والواقع فيها ، كمثل قوم استهموا على سفينة ، فصار بعضهم أعلاها ، وبعضهم أسفلها ، وكان الذين فى أسفلها إذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم ، فقالوا : لو أنا خرقنا فى نصيبنا خرقاً ، ولم نؤذ من فوقنا ، فإن تركوهم وما أرادوا هلكوا جميعاً ، وإن أخذوا على أيديهم ، نجوا ونجوا جميعاً) .

وترابط الناس ضرورة حياة إن لم نأخذه من مثل قول الله تعالى :

« واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا ... »[1] .

(وكل إنسان مرتبط بأولئك الذين سبقوه ، وبمن سيتبعونه .. إنه يمتزج بهم بطريقة ما ، إذ يبدو أن الإنسان لا يتألف من ذرات منفصلة كما يتألف الغاز من الجزيئات فهو أشبه بشبكة ممتدة مكونة من خيوط طويلة تمتد فى الاتساع — الزمن — وتتألف من سلسلة من الأفراد ، ولا شك أن الفردية حقيقة ، ولكنها أقل تحديداً مما نعتقد ، كما أن استقلال أى فرد عن الآخرين وعن العوالم وهم) كما قال ألكسيس كاريل .

إن ترابط الناس برباط الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، من أكرم الوشائج ، حين يصاب الناس بقاصمة الظهر ، من طغيان الأثرة الهادمة ، والأنانيات المردية . وقد أخرج الشيخان عن أم المؤمنين زينب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دخل عليها فزعاً مرهوباً يقول : (لا إله إلا الله ، ويل للعرب من شر قد اقترب ، فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذه — وأشار بإصبعيه الإبهام والتى تليها — فقلت : يارسول الله ، أنهلك وفينا الصالحون ؟! قال : نعم ، إذا كثر الخبث) .

والخبث : الفسوق والفجور . وفى الحديث أن الفساد إذا عم وطم كان ذلك إيذاناً بأخذ الله وعقابه ، وإن وجد الصالحون الذين قال فيهم الرسول إنهم يبعثون على نياتهم .

(١) سورة آل عمران ، الآية ١٠٣

وفى الحديث شؤم المعصية ، وفيه التحريض على إنكارها .

والعلماء يذكرون ثلاث حكم للأمر بالمعروف والنهى عن المنكر :

أولاها : إقامة حجة الله على خلقه . قال تعالى : « رسلا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل »(١) .

ثانيها : خروج الأمر من عهدة التكليف بالأمر بالمعروف . قال تعالى فى صالحى الذين اعتدوا فى السبت : « قالوا معذرة إلى ربكم »(٢) .

وقال لمصطفاه صلى الله عليه وسلم : « فتولّ عنهم فما أنت بملوم »(٣) . تدل على أنه لو لم يخرج من العهدة لكان ملوماً .

ثالثها : رجاء النفع للمأمور . قال تعالى : « قالوا معذرة إلى ربكم ولعلهم يتقون » .

وقال : « وذكّر فإن الذكرى تنفع المؤمنين »(٤) .

وقال : « فذكر إن نفعت الذكرى » .

وإنه لحق يؤدّى وواجب يسدى للأزواج والأهل والعشيرة .

« وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها لا نسألك رزقاً نحن نرزقك والعاقبة للتقوى »(٥) .

قال ابن النحاس : (ولا شك أن من رآى أخاه على منكر ولم ينهه ، فقد أعانه عليه بالتخلية بينه وبين ذلك المنكر ، وعدم الاعتراض عليه ، وليس هذا من الدين فى شىء ، إذ لا يؤمن الرجل حتى يحب لأخيه مايحبه لنفسه ، وإنما الدين النصيحة ، ولا شك أن من رآى إنساناً يهوى فى النار ولم ينصحه فإنما إثمه عليه) .

أيها الناس، إن أحب عباد الله إلى الله الذين يحببون عباد الله إلى الله ، ويسعون فى الأرض بالنصيحة .

(١) سورة النساء ، الآية ١٦٥
(٢) سورة الأعراف ، الآية ١٦٤
(٣) سورة الذاريات ، الآية ٥٤
(٤) سورة الذاريات ، الآية ٥٥
(٥) سورة طـه ، الآية ١٣٢

الفصل السابع

- عقيدة المسلم .
- اعرض نفسك على كتاب الله .
- لا إله إلا الله بحقها .
- الحمد لله .

عقيدة المسلم

إن فوق طاقة البشر أن نلم بكل مقاصد القرآن الكريم ، أو نلم — فى أقل القليل — بعناصر الهداية ، وأصول الإصلاح والتقويم التى حفل بها كتاب الدين العظيم ، وصحيح أن القرآن كتاب الله للإنسان ، لكن إنسان من الناس — أو أناسىّ — مهما استبحروا فى العلم ، وأوتوا بسطة غىّ الإدراك والتحصيل والفهم ، لا يوفون من القرآن إلا على مثل ما تمثله القطرة من البحر ، أو الذرة من الصحراء المترامية الأطراف .

« وما أوتيتم من العلم إلا قليلا »[1] .

ولقد استعرضنا آيات من القرآن الكريم ، وحرصنا على أن نرى ما فيها من هدايات الله تعالى ، فهل أدركنا من ذلك إلا لمحات دالة ، وإشارات هادية ؟ ! وسيتصل عطاء ما استعرضناه كلما أعملنا — أو أعمل غيرنا — فيها فكراً ، أو غلغلنا نظراً ، وصدق الله العظيم :

« سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق »[2] .

وعظمة الكتاب الباقى ، فى أنه استهدف عقيدة المسلم ، فأرسى قواعدها بعد أن بين براهينها وشواهدها ، فى الأنفس والآفاق . وتطالعك آيات القرآن بكل ما يستأصل من نفوس الأسوياء أى ريب فى وجود الله وكمال قدرته ، ونافذ إرادته ، وإحاطة علمه ، وجليل قيُّوميَّته ، على نحو لو لم يكن جلياً ، يواجهك فى نفسك وفيما حولك يميناً ويساراً وعلوًّا وسفلا ،

(١) سورة الإسراء ، الآية ٨٥ (٢) سورة فصلت ، الآية ٥٤

فإن من حق الله على عباده أن يتعرفوا عليه وأن يصلوا عن طريق مخلوقاته إليه ، فالأمر كما قال العربى فى القديم : (إذا كانت البعرة تدل على البعير ، أفلا تدل السموات والأرض ومن فيهن على وجود اللطيف الخبير) ؟

« إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب * الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكرون فى خلق السموات والأرض ، ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك فقنا عذاب النار »(١) .

وقد أخذ تعميق العقيدة فى كتاب الله عز وجل حيزاً كبيراً باعتباره المنطلق السليم إلى عبادة متقبَّلة ، وسلوك راشد ، وهو قدر لو فهمناه من كتاب الله تعالى ، ومما أضافته السنة المطهرة فى هذه السبيل ، لكفى وشفا ، وكشف الطريق إلى السعادة الحقة التى كفلها الله تعالى فى الدنيا والآخرة لمن يقيمون أعمالهم وتصرفاتهم على منهاج دينه القويم ، وفى آية واحدة يقول الله تعالى لمصطفاه : « فاعلم أنه لا إله إلا الله واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات والله يعلم متقلبكم ومثواكم »(٢) .

فتبرز لك الآية أطرافاً : الله ، والرسول ، والناس ، والآخرة ، والجزاء فيها ، فالله تعالى يوجب على مصطفاه العلم ، والعمل الذى يكون الجزاء من جنسه : « فلا تظلم نفس شيئاً »(٣) .

وإيجاب العمل على الرسول ، واستدعاء نظره أن يلحظ المؤمنين والمؤمنات فى طلب المغفرة له ولهم ، إرشاد للإنسان فرداً ولبنى الإنسان كذلك ، كى يكون الإنسان مؤمناً حقاً ، مجرداً عبادته وقصده لله وحده ،

---

(١) سورة آل عمران ، الآيتان ١٩٠ و ١٩١

(٢) سورة محمد ، الآية ١٩ (٣) سورة الأنبياء ، الآية ٤٧

متحرزاً من الذنب جهده ، مسارعاً إلى رحاب الاستغفار والمتاب ، والأوبة إلى الله الذى يحب التوابين ويحب المتطهرين .

أجل إن صلاح العقيدة منطلق صالح إلى عبادة متقبَّلة ، وسلوك راشد هو ثمرة حقة للإيمان ، وأثر صالح للعبادة التى لا يبالى الله بها حتى ترتفع بصاحبها إلى مستوى التقوى .

« يأيها الناس اعبدوا ربكم الذى خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون * الذى جعل لكم الأرض فراشاً والسماء بناءً ، وأنزل من السماء ماءً فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون »(١) .

والآية وأمثالها شاهد ببعض خصائص القرآن الكريم ، فهو يبنى العقيدة ويدعمها — على ما نلاحظ فى الآية — بالبراهين العقلية والكونية ، وترتبط الأحكام فيه بأمور منها مصالح العباد ومنافعهم ، ودفع المضار ، إلى ما فى التقيد بالأحكام والأوامر والنواهى من حقيقة الإذعان لله ، واليقين بأن فى طاعته عز الدنيا وأمن الآخرة .

والآية التى بين يديك فيها تكريم الله للإنسان حين لا يأمره عز وجل بمجرد الانقياد والإذعان اللذين هما حق الله على بنى الإنسان ، وعلى سائر ما فى الأكوان ، بل قلب عقله وبصره وسائر منافذ الحس والإدراك فيه إلى شواهد الإيمان ومجاليه ، وهى قوى ومواهب تستقيم وتختل ، وتصح وتعتل ، وقد نرى الأشياء على غير حقائقها حتى يعصمها من الله تعالى عاصم ، ويأتيها من لدنه تبارك وتعالى هدى مبين .

يقول الشيخ محمد رشيد رضا رحمه الله : ولما كان الإنسان عرضة للخطأ والضلال فى فهم الدين ، وفى استعمال الحواس والعقل ، كان محتاجاً

---

(١) سورة البقرة ، الآيتان ٢١ و ٢٢

إلى المعونة الخاصة ، فأمرنا الله عز وجل بطلبها منه فى قوله تعالى : « اهدنا الصراط المستقيم » .

حتى قال رحمه الله : وما كان هذا أول دعاء علَّمنا الله تعالى إياه ، إلا لأن حاجتنا إليه أشد من حاجتنا إلى كل شىء سواه . اهـ .

وحقاً فليس أعز من هدى الله لعبده ، بمعنى دلالته على الصواب ، ومعونته تبارك وتعالى على عمله والتزامه بكل حال .

إن معرفة الصواب ، تشبه إلى حد بعيد وقوفك بين الخير والشر دون أن تفيض فى هذا الخير ، أو تخوض فى ذلك الباطل ، فإذا وهبك الله عونه وأقدرك على السلامة من الباطل ، وإتيان الخير بقدر ما يشاء الله ، كانت تلك الهداية إلى الصراط المستقيم .

والدعاء فى الإسلام هو العبادة ، كما يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم .

والهداية بمعناها الخاص هى لبّ الدين وحقيقته التى ينطلق منها المؤمن راشداً إلى مراضى الله تعالى ، فهو وحده مالكها ، فالهدى هداه ، ولا يعين على جلب الخير سواه ولا يدفع السوء إلا الله .

« وما بكم من نعمة فمن الله »[1] .

وسؤالك الله هدايته ، هو ثقة فى قدرته ورحمته وعلمه المحيط وسلطانه الشامل ، وهو حرص على أن تنال خيره بأسباب ربانية .

« ورحمتى وسعت كل شىء فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون * الذين يتبعون الرسول النبى الأمى الذى يجدونه مكتوباً عندهم فى التوراة والإنجيل ، يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التى كانت عليهم ، فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذى أنزل معه أولئك هم المفلحون »[2] .

---

(١) سورة النحل ، الآية ٥٣ (٢) سورة الأعراف ، الآيتان ١٥٦و١٥٧

إن القرآن الذى صنع بالعرب فى جاهليتهم ما صنع بعد أن كانوا كما قال الله : « وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين »[١] .

« واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداءً فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً ، وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها »[٢] .

« واذكروا إذ أنتم قليل مستضعفون فى الأرض تخافون أن يتخطفكم الناس فآواكم وأيدكم بنصره ورزقكم من الطيبات لعلكم تشكرون »[٣] .

إن القرآن بهداياته هو نعمة الله الكبرى ، وهدايته العظمى التى أثارت أحقاد المشركين وغيرهم — والوحى ينزل — حتى قال الله تعالى : « ما يود الذين كفروا من أهل الكتاب ولا المشركين أن ينزل عليكم من خير من ربكم ، والله يختص برحمته من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم »[٤] .

والبنون فى حقدهم على المسلمين ، وضيقهم بالقرآن على هوى الآباء ، وياليت قومى يعلمون .

---

(١) سورة الجمعة ، الآية ٢
(٢) سورة آل عمران ، الآية ١٠٣
(٣) سورة الأنفال ، الآية ٢٦
(٤) سورة البقرة ، الآية ١٠٥

اعرض نفسك على كتاب الله

إن الاستجابة لله ورسوله فى قوله تعالى : « يأيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم »(١) .

توكيد لحقيقة أن الإسلام هو طوق النجاة ، وسبيل السلام والأمن فى الحياة ، ورضوان الله يوم نلقاه ..

إن الحياة هى الوجود ، وإن الموت فى ظاهر الأمور هو العدم والفناء ، وإذا كان الفناء هو نهاية مطاف الوجود ، فإن الحياة يختمها الموت .

وتقديم الموت على الحياة فى قوله تعالى : « تبارك الذى بيده الملك وهو على كل شىء قدير * الذى خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا »(٢) .

إشعار بما نحن فيه من حياة لاتخفى على المتلبسين بها ، وتذكير بالموت الذى ينساه كثيرون أو يتناسونه وهم يأثمون ويتعجلون اللذائذ وينتهبونها مخدوعين بما تغفله من مصاير السوء ، ولو تذكروا أنهم تاركون الحياة شاءوا أم أبوا ، وصائرون إلى الله بأعمالهم : « ليجزى الذين أساءوا بما عملوا ويجزى الذين أحسنوا بالحسنى »(٣) .

لسارعوا إلى المتاب ، وعجلوا إلى الإيمان والصالحات المآب ، وجلت أنعم الله الذى وهب الحياة للحى ، وهداه فيها سبل السلام بكل ما عرفت من معانى الهداية من بيان ومعرفة ومعونة على أن نكون من المهتدين المتقين المفلحين .

---

(١) سورة الأنفال ، الآية ٢٤ (٢) سورة الملك ، الآيتان ١ و ٢

(٣) سورة النجم ، الآية ٣١

وهذه الهداية هى ثمرة أوامر الله ونواهيه الملحوظة من قوله تعالى : « إذا دعاكم لما يحييكم »[١] .

إنها حياة قلب وعقل ، وطاعة لله ، واستقامة على طريق رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فتلك هى الحياة الحقة ، والوجود السعيد ، وما يكون الوجود شيئاً بدون إيمان بالله ، وإذعان ، والتزام لهدى رسول الله .

والإمام القرطبى يورد هذه الآية ويقول : قال مجاهد والجمهور يقول (المعنى استجيبوا للطاعة وما تضمنه القرآن من أوامر ونواهى ففيه الحياة الأبدية ، والنعمة السرمدية) .

ولا ريب أن العموم البادى فى هذا التفسير أشبه بكمال القرآن من تخصيص « ما يحييكم » وتضييق فحواها فى الجهاد على خطره ، وضرورته عند تحقيق دواعيه .

« والجهاد ماض حتى تقوم الساعة » .

والآيات التى سبقت هذه الآية فى سورة الأنفال ترتبط فى الذهن بهذه الآية التى ذكر الإمام البخارى أنها نزلت فى نفر من بنى عبد الدار ، ويرى بعض العلماء أنها نزلت فى المنافقين ، ولا تعارض بين القولين ، فالمشركون ومنهم بنو عبد الدار يشاركون المنافقين فى العناد والإعراض عن دعوة الحق .

وقد قال بنو عبد الدار للرسول صلى الله عليه وسلم : (نحن صم بكم عما جئت به لا نسمعه ولا نستجيب إليه) ، فنزل قوله تعالى : « إن شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون * ولو علم الله فيهم خيراً لأسمعهم ولو أسمعهم لتولوا وهم معرضون »[٢] .

---

(١) سورة الأنفال ، الآية ٢٤ (٢) سورة الأنفال ، الآيتان ٢٢ و ٢٣

وسياق الآيات بدء ونهاية ، إرشاد وتوجيه للمؤمنين ، خيرة الله من خلقه ، ففى البدء يقول الله تعالى : « يأيها الذين آمنوا أطيعوا الله ورسوله ولا تولوا عنه وأنتم تسمعون ، ولا تكونوا كالذين قالوا سمعنا وهم لا يسمعون »(١).

وفى ختام ذلك السياق يقول تعالى : « يأيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول » .

إن الله تعالى يدعونا فى كتابه الكريم ، وعلى لسان رسوله العظيم ، إلى ما يحيى قلوبنا ، ويصلح نفوسنا ، ويزكى أرواحنا ، وينير من بين أيدينا ومن خلفنا وعن أيماننا وشمائلنا مختلف الدروب والمسالك :

« ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور »(٢).

وعلى المؤمن أن ينظر فى نفسه ، وأن يعرضها على كتاب الله تعالى على آيات الله البينة فى نماء العقيدة وسواء العبادة ورشيد السلوك ، وعلى ما حسن وصلح من أنباء ما قد سبق ، فالقرآن يعرض حالهم للاتعاظ والاعتبار . قال تعالى : « قل سيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبة الذين من قبل »(٣).

وحاشا لله أن يكون ما قص الله على مصطفاه ، فى القرآن الكريم إلا للعبرة والعظة والإرشاد والتقويم .

« قد جاءكم بصائر من ربكم فمن أبصر فلنفسه ومن عمىَ فعليها وما أنا عليكم بحفيظ »(٤).

ورحم الله الشيخ محمد رشيد رضا ، فلقد نقل عن الشيخ محمد عبده نظره فى قوله تعالى : «والذين يؤمنون بما أُنزل إليك وما أُنزل من قبلك »(٥).

(١) سورة الأنفال ، الآية ٢٢
(٢) سورة النور ، الآية ٤٠
(٣) سورة الروم ، الآية ٤٢
(٤) سورة الأنعام ، الآية ١٠٤
(٥) سورة البقرة ، الآية ٤

فقال : (ما كل من أظهر الإيمان بما ذكر مهتد بالقرآن ، فالمؤمنون بالقرآن على ضروب شتى ، ونرى بيننا كثيرين ممن إذا سئل عن القرآن قال : هو كلام الله ولاشك،ولكن إذا عرضت أعماله وأحواله على القرآن رآها مباينة له كل المباينة) .

القرآن ينهى عن الغيبة والنميمة والكذب ، وهو يغتاب ، ويسعى بالنميمة ، ولا يتأثم من الكذب .

القرآن يأمر بالفكر والتدبر ، وهو كما وصف المكذبين بقوله فيهم : « الذين هم فى غمرة ساهون »(١).

لايفكر فى أمر آخرته ، ولا فى مستقبله ، ولامستقبل أمته ، ولايتدبر الآيات والنذر ، ولا الحوادث والعبر .

إن المؤمن الموفق المذكور فى قوله تعالى : « ألم * ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين * الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون * والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون * أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون »(٢).

هذا الذى عرف أعماله وأخلاقه باستكمال ما هدى إليه من القرآن دائماً ، ويجعله معياراً يعرض عليه تلك الأعمال والأخلاق ليتبين : هل هو مهتد ، أم لا ؟ مثال ذلك : الصلاة .. يصفها القرآن بأنها : « تنهى عن الفحشاء والمنكر »(٣).

وقال فى المصلين : « إن الإنسان خُلق هلوعاً * إذا مسه الشر جزوعاً * وإذا مسه الخير منوعاً * إلا المصلين »(٤) .

(١) سورة الذاريات ، الآية ١١
(٢) سورة البقرة ، الآيات ١ — ٥
(٣) سورة العنكبوت ، الآية ٤٥
(٤) سورة المعارج ، الآيات ١٩ — ٢٢

فبين أن الصلاة تقتلع الصفات الذميمة الراسخة التى تكاد تكون فطرية ، فمن لم تنهه صلاته عن الفحشاء والمنكر ، ولم تقتلع من نفسه جذور الجبن والهلع ، وتصطلم جراثيم البخل والطمع ، فليعلم أنه ليس مصلياً فى عرف القرآن ، ولا مستحقاً لما وعد عباد الرحمن .

والإمام السيوطى يورد بسنده فى (الإتحافات السنية فى الأحاديث القدسية) قول رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ربه تبارك وتعالى :

(ليس كل مصلّ يصلى ، إنما أتقبل الصلاة ممن تواضع لعظمتى ، وكف شهواته عن محارمى ، ولم يصرّ على معصيتى وآوى الغريب ، كل ذلك لى ، وعزتى وجلالى إن نور وجه المصلى لأضوأ عندى من نور الشمس على أن أجعل الجهالة له علماً والظلمة نوراً ، يدعونى فألبيه ، ويسألنى فأعطيه ، ويقسم علىّ فأبرّه ، مثل عبدى المؤمن عندى كمثل الجنة لا يتسنى ثمرها ، ولا يتغير حالها) .

إن الأعمال الموافقة لهدى المصطفى صلى الله عليه وسلم — وهديه هو هدايات القرآن — تحقيق للاتباع الذى لا تكون بدونه من الإسلام فى شىء ، وهو يقول صلى الله عليه وسلم : (لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به) .

وصدق الله العظيم :

« وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا »[1] .

« وإن تطيعوه تهتدوا وما على الرسول إلا البلاغ المبين »[2] .

---

(١) سورة الحشر ، الآية ٧ (٢) سورة النور ، الآية ٥٤

لا اله الا الله بحقها

إن أساس الدين كله ، والأصل الذى لا يتقبل الله الأعمال إلا به ، ولا تتحقق سعادة الدنيا والآخرة إلا بمقتضاه ، إنما هو الإيمان بالله تعالى، إيماناً يملك من المؤمن شغاف قلبه، وشعاب نفسه، ويطلق جوارحه بمراضى الله تعالى وحده ، فليس الإيمان بالتمنى ، ولا بالتحلى ، ولكنه كما قال الحسن رضوان الله عليه : (ما وقر فى القلب وصدقه العمل) .

وما صدق من قال : (لا إله إلا الله) وهو لا يستجيب لأمره ، ولا يقف عند حدوده ، فيرضى ما أحلّ ، ويدع ما حرّم .

إن (لا إله إلا الله) جمعت التوحيد بطرفيه ، توحيد الربوبية ، وتوحيد الألوهية ، وهما إن انفك الاعتقاد بأحدهما عن الآخر ، لا يبقى لأحدهما معنى ، ولا يرضى به الله تعالى .

فكيف يعرفه بعضهم ببعض صفات الخلق والرّزق والملك ثم لايفرده بطلب ذلك منه ، والضن بشىء من ذلك على سواه ؟ ثم كيف يعرفه خالقاً رازقاً مالكاً ماضياً فى الحياة والأحياء أمره ، من يعبد غيره ويعطيه الولاء والإذعان اللذين لا يكونان إلا لله وحده ؟ !

« لا تجعل مع الله إلهاً آخر فتقعد مذموماً مخذولا »[1] .

« ولا تجعل مع الله إلهاً آخر فتلقى فى جهنم ملوماً مدحوراً »[2] .

---

(١) سورة الإسراء ، الآية ٢٢ (٢) سورة الإسراء ، الآية ٣٩

ثم كيف يعرف الله ببعض صفاته من كذبوا رسالاته ، وتمردوا على قضائه وقدره ، وأنكروا قسمته ، وارتابوا فى وعده ووعيده ، وأدخلوا أنوفهم فى شئونه ومشيئته ، ووضعوا للحياة والأحياء قواعد ومناهج لا يرجح بها ميزان أمام تقديره ومنهاجه ، وهو يعلم من خلق ، وما خلق ، وهو أرحم بعباده من الوالدة بولدها ! .

أجل لا يصدق من قال : « لا إله إلا الله » وهو يظن أن أحداً غير الله يضر أو ينفع ، يخفض أو يرفع ، يعطى أو يمنع . كيف .

« ولله خزائن السموات والأرض »(١) .

وهو سبحانه لا يقع فى ملكه إلا ما يريد .

« وما تشاءون إلا أن يشاء الله رب العالمين »(٢) .

وهو سبحانه « الرزاق ذو القوة المتين »(٣) .

والمؤمن قولا وعملا لا يهون ، ولا يذل لكائن ، ولا يضعف أمام متغيرات الحياة ، وإنما يهون من اعتز بغير ربه ، ولاذ إلى حمى كائن ، حاجته إلى الله موصولة وإن ادعى غير ذلك ونسى الآجلة .

ومتغيرات الحياة ، وشدائدها بخاصة تكون رخاء بالنسبة للمؤمن الذى يأخذ نفسه بقول مولاه : « ومن يتوكل على الله فهو حسبه »(٤) .

وفى الحديث القدسى : (أنا مع عبدى ما ذكرنى وتحركت بى شفتاه) .

وعبادة الله وحده ، بإفراده بالربوبية ، كما اعتقدوا فى غيبة رسالات الله ، وإفراده بالألوهية ، فى كل ما أوجب من طاعة ، وشرع من عبادة وبلغ رسوله صلوات الله عليه من ذلك ، تطمئن بها نفس المؤمن وتسكن ، وإن مادت الجبال ، واضطربت جوانب الحياة .

---

(١) سورة المنافقون ، الآية ٧ (٢) سورة التكوير ، الآية ٢٩

(٣) سورة الذاريات ، الآية ٥٨ (٤) سورة الطلاق ، الآية ٣

« ومن يؤمن بالله يهدِ قلبه »[١] .

« ومن يعتصم بالله فقد هُدِىَ إلى صراط مستقيم »[٢] .

ذلك لأن المؤمن عرف ربه ، له الحمد ، وله الملك ، وله العزة ، وله الكبرياء ، وله دعوة الحق ، وله غيب السموات والأرض ، وله ملك السموات والأرض وما فيهن ، وما بينهما ، وما تحت الثرى ، وله خزائن السموات والأرض ، وله ما سكن فى الليل والنهار .

« ولله يسجد ما فى السموات وما فى الأرض من دابة والملائكة وهم لايستكبرون * يخافون ربهم من فوقهم ويفعلون ما يؤمرون »[٣] .

« إن ربكم الله الذى خلق السموات والأرض فى ستة أيام ثم استوى على العرش يدبر الأمر ما من شفيع إلا من بعد إذنه ، ذلكم الله ربكم فاعبدوه أفلاتذكرون * إليه مرجعكم جميعاً وعد الله حقاً إنه يبدأ الخلق ثم يعيده ، ليجزى الذين آمنوا وعملوا الصالحات بالقسط والذين كفروا لهم شراب من حميم وعذاب أليم بما كانوا يكفرون »[٤] .

« ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين »[٥] .

« إنك تعلم ما نخفى وما نعلن »[٦] .

« قد أحاط بكل شىء علماً »[٧] .

« وأحصى كل شىء عدداً »[٨] .

« ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير »[٩] .

« لم يتخذ ولداً ولم يكن له شريك فى الملك ولم يكن له ولى من الذل »[١٠] .

(١) سورة التغابن ، الآية ١١ — (٢) سورة آل عمران ، الآية ١٠١
(٣) سورة النحل ، الآيتان ٤٩ و ٥٠ — (٤) سورة يونس ، الآيتان ٣ و ٤
(٥) سورة الأعراف ، الآية ٥٤ — (٦) سورة إبراهيم ، الآية ٣٨
(٧) سورة الطلاق ، الآية ١٢ — (٨) سورة الجن ، الآية ٢٨
(٩) سورة الملك ، الآية ١٤ — (١٠) سورة الإسراء ، الآية ١١٨

« إن الله عنده علم الساعة ، وينزل الغيث ، ويعلم ما فى الأرحام ، وما تدرى نفس ماذا تكسب غداً ، وما تدرى نفس بأى أرض تموت ، إن الله عليم خبير »(١) .

« لايكلف الله نفساً إلا وسعها لها ماكسبت وعليها ما اكتسبت »(٢) .

« وما جعل عليكم فى الدين من حرج »(٣) .

« يريد الله ليبين لكم ويهديكم سنن الذين من قبلكم ويتوب عليكم والله عليم حكيم * والله يريد أن يتوب عليكم ويريد الذين يتبعون الشهوات أن تميلوا ميلا عظيماً * يريد الله أن يخفف عنكم وخلق الإنسان ضعيفاً »(٤) .

إن عطاء القرآن الكريم فى التعريف بالله وهداياته ، وإيجاب اتباع سنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، وضرورة معرفتها والانتفاع بها ، ماسة لإقامة الحياة على منهاجها ، ولكى تكون أملا كبيراً فى مواجهة الآخرة والمصير إلى الله عز وجل على مثلها .

« ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئاً وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين »(٥) .

إن حلاوة القرآن ، ويسر تناوله ، يضاف إليهما وفاؤه بكل متطلبات الإنسان الذى صحت عقيدته ، وصلحت عبادته ، وسما سلوكه ، وعامل الناس بمقتضى حقيقة أنهم إخوته ، أبوهم آدم وأمهم حواء ، وأنه لا تفاوت بينهم إلا بالتقوى وصالح العمل ، فأقسط فى الحكم ، ووفى بالوعد ، ورعى العهد ، وحفظ الأمانة ، وأداها كاملة غير منقوصة ، وجادل حين يتحتم الجدال بالتى هى أحسن ، وجاهد فى الله حق جهاده ، وصبر على المكاره التى لايستطيع لها دفعاً ، وشكر على إقبال النعم ، ولم تبطره الهبات ،

---

(١) سورة لقمان ، الآية ٣٤
(٢) سورة البقرة ، الآية ١٨٦
(٣) سورة الحج ، الآية ٧٨
(٤) سورة النساء ، الآيات ٢٦ — ٢٨
(٥) سورة الأنبياء ، الآية ٤٧

ولم تخرجه عن حسن النظر إلى الله مانحها ، ولو شاء استرجعها ، وكظم الغيظ ، وعفا عن المسيء ، وسارع فى الخيرات ، واتقى الله بكل حال ، وعرف الدنيا على حقيقتها ، وأنها بما فيها من خيرات الله متاع ، ولكن الآخرة خير وأبقى .

يضاف ذلك إلى حلاوة القرآن ويسر تناوله ، فتتضاعف منة الله بالقرآن على أهل الإيمان بمثل قوله تعالى : « قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء والذين لا يؤمنون فى آذانهم وقر وهو عليهم عمى ، أولئك ينادون من مكان بعيد »(١) .

« وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين »(٢) .

« إن هذا القرآن يهدى للتى هى أقوم »(٣) .

وما أنفع أن نتدارس دائماً صفات المؤمنين فى كتاب الله ، وأوامره تعالى للمتقين ، وأن نتتبع نواهى القرآن فى مثل قول الله لمصطفاه :

« ولا تقفُ ما ليس لك به علم »(٤) .

« ولا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجاً منهم زهرة الحياة الدنيا »(٥) .

حتى تجدد العهد مع الله أن نستمسك بكتابه ، وأن نأتمر بأوامره ، ونتأدب بآدابه ، وأن نتقى زواجره ، ونعيش — والمستعان الله — فى رحابه .

« فاستمسك بالذى أوحى إليك ، إنك على صراط مستقيم * وإنه لذكر لك ولقومك وسوف تسألون »(٦) .

---

(١) سورة فصلت ، الآية ٤٤
(٢) سورة الإسراء ، الآية ٨٣
(٣) سورة الإسراء ، الآية ٩
(٤) سورة الإسراء ، الآية ١٠٦
(٥) سورة طه ، الآية ١٣١
(٦) سورة الزخرف ، الآيتان ٤٣ و ٤٤

الحمـــد لله

الحمد الله الذى بنعمته تتم الصالحات، فلقد يسر — وله الفضل والمنّة — أن نمنح القرآن الكريم إصغاءنا، وأن نفرغ الوسع فى تدبرنا لبعض آياته، وإذا كان لذلك اللقاء أجل مقسوم، وزمن معلوم، فما ينبغى بحال أن يكون ذلك آخر عهدنا بالقرآن أبداً، ما طرفت فينا عين، ونبض قلب، وتحركت أطراف، وما زال العقل يعمل والأذن تسمع، والقلم تستمسك به الأصابع، والقدرة على الحياة مع كتاب الله تعالى تتاح، فبذلك تطيب الحياة، ونظفر بموعود الله تعالى فى قوله :

« فاذكرونى أذكركم واشكروا لى ولا تكفرون ... »[1] .

وقوله : « والذاكرين الله كثيراً والذاكرات، أعد الله لهم مغفرة وأجراً عظيما »[2] .

ووسائل ذكر الله، وأساليب مناجاته لا تتناهى، ذكراً لأسمائه وصفاته، وشكراً لآلائه وهباته، وتدبراً لآياته المتلوّة، وآياته المجلوّة فى الأنفس والآفاق، واستيعاباً وحصراً لما يعين الله على بلوغه من مخلوقاته، أسماء ومسميات، وهيهات هيهات أن نحصى من هذا ما يدخل تحت أيسر قدر من أرقام الحاسبين وجل الله الذى يقول : « ولو أن ما فى الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله إن الله عزيز حكيم »[3] .

---

(١) سورة البقرة، الآية ١٥٢ (٢) سورة الأحزاب، الآية ٣٥
(٣) سورة لقمان، الآية ٢٧

ويقول : « قل لو كان البحر مداداً لكلمات ربى لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربى ولو جئنا بمثله مدداً »[١] .

إنها كلمات العليم الحكيم الذى أحاط بكل شىء علماً ، وأحصى كل شىء عدداً ، ولا تخفى عليه خافية فى الأرض ولا فى السماء ، وكيف ؟ وكل شىء خلقه ، وكل شىء عنده بمقدار : « يعلم مابين أيديهم وماخلفهم ولا يحيطون بشىء من علمه إلا بما شاء »[٢] .

« وما تكون فى شأن وما تتلو منه من قرآن ولا تعملون من عمل إلا كنا عليكم شهوداً ، إذ تفيضون فيه ، وما يعزُب عن ربك من مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا فى كتاب مبين»[٣] .

أجل إن كلمات الله تعالى هى كلامه القديم الدال على علمه المحيط ، وقيُّوميته التامة ، وقدره الراصد ، ومشيئته الماضية ، وسننه الحكيمة ، وعجائب صنيعه فيمن خلق وما خلق ، وما وضع لهذين من نظام يبرزه قوله تبارك وتعالى على لسان موسى عليه السلام : « ربنا الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى »[٤] .

إن ردّ كلمات الله على كلامه القديم ، أولى من وقفها على مجرد الكائنات ، فإن المخلوقات أمره — سبحانه — وأمره من كلماته ، وهى تامة فى ذاتها ، تما أفلتت شأناً من شئون الحياة ولا الأحياء إلا وفت به ، وربطته بغيره ، والمخلوقات يعروها التغير ، ويدركها الفناء ، وتبقى ببقاء الله كلماته ، لا مبدل لكلماته : « وتمت كلمة ربك صدقاً وعدلا لا مبدّل لكلماته وهو السميع العليم »[٥] .

ومن رحمة الله تعالى بعباده أن قرّب لأفهامهم كثرة معانى كلماته ،

---

(١) سورة الكهف ، الآية ١٠٨
(٢) سورة البقرة ، الآية ٢٥٥
(٣) سورة يونس ، الآية ٦١
(٤) سورة طـه ، الآية ٥٠
(٥) سورة الأنعام ، الآية ١١٥

وهى فى نفسها غير متناهية بالمأنوس الملموس من كثرة قطر البحر ، وفروع الأشجار وأصولها مع أنها مخلوقات تتناهى ، والأمثال أصول فى تقريب المفهومات الكبرى ، وليس بالضرورة أن يكون الأمر ومثاله على تمام التساوى .

قال أبو جعفر النحاس رحمه الله : (فقد تبين أن الكلمات ههنا يراد بها العلم ، وحقائق الأشياء ، لأنه عز وجل علم قبل أن يخلق الخلق ما هو خالق فى السموات والأرض من كل شيء ، وعلم ما فيه من مثاقيل الذر ، وعلم الأجناس كلها ...) إلى آخر ما قال رحمه الله ، على أن البحار الزاخرة والأشجار المتكاثرة من هذه المخلوقات بما فى البحار نفسها من أسرار ، وما للأشجار من خواص ودلالات ، هى وما وراءها مما لايغيب عن الله — حاشاه — أن يعلمه ، وإن دق ، فهو اللطيف الخبير الذى يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور :

« سواء منكم من أسرّ القول ومن جهر به ومن هو مستخفٍ بالليل وساربٍ بالنهار »[1] .

وعموم كلمات الله تعالى ، وشمول علمه بما دقّ وما جلّ من أمور خلقه ومخلوقاته ، شاهد حكمته فيما شرع وأوجب ، وعدله ورحمته فيما سنّ من أحكام وما وضع من حدود يقف الأسوياء دونها حتى لا يأخذهم وعيد الله ، وكيلا تفوتهم موجبات وعده لمن التزموا صراطه المستقيم ، وهو القرآن الكريم فى بعض إطلاقات اللغة ، وهل الدين كله إلا القرآن الكريم ، وما أوجبه القرآن من أخذ ما آتانا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، بعد أن قال تعالى : « وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا واتقوا الله إن الله شديد العقاب »[2] .

---

(١) سورة الرعد ، الآية ١٠ ، والسارب : الظاهر الجلى فى مقابلة المستخفى .
(٢) سورة الحشر ، الآية ٧

إن الله تعـالى أكمل بمصطفاه الدين ، وامتن بذلك علينا وعلى الناس فقال تعالى : « اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام ديناً »(١) .

وما آثر الرسول الرفيق الأعلى ، وأجاب ربًا دعاه ، إلا بعد أن تمت النعمة ، وليس بعد التمام شىء . ورحم الله ابن قيم الجوزية فقد نفذ بتوفيق الله إلى ما لم ينفذ إليه عالم من علمائنا الذين تابعوا النظر فى آية سورة المائدة ، لقد لحظ وثاقة الصلة بين الكمال والدين ، وبين التمام والنعمة ، كما لحظ معنى (لكم) فى الدين و(عليكم) فى النعمـة ، وهو مستوى عال فى إمعان النظر فى القرآن الكريم لاستخلاص مكنون هـدايات الله فى الأحـكام والتشريع ، وتعميق الإيمان ، والاستمساك بالتكاليف والأوامر الإلهية عبادة وسلوكاً ، والانتفاع بما قصّ الله من قصص ، وخلد من سير ، وبين من مثلات ، وضرب من أمثال ، تدعم العقيدة ، وترسى كيان المجتمع المسلم ، وتحفز القوى فى ميادين الاستخلاف لإبلاغ الحياة كمالها الممكن ، إلى مدى ينقلب فيه الجميع من دنياهم إلى أُخراهم ليتحقق عدل الله وفضله ، عدله — جلت حكمته — فيمن طغى وآثر الحياة الدنيا ، وفضله لمن نافسوا فى مراضى الله ،وجدوا على طريق هداه ، وارتضوا حكمه الماضى ، رضوا أم أبوا :

« ولا يظلم ربك أحداً »(٢) .

ألا ليتنا نعيش أبداً مع القرآن الكريم ، نتـأمل أمثـاله وقصصه ، وتكاليف الله لعباده وشرعه لهم ، فنزداد إيماناً على إيمان ، بأن الدين قد كمل ، وأن نعمة الله به قد تمت ، وأن الإسلام هو دين الله الذى رضيه

(١) سورة المائدة ، الآية ٣ (٢) سورة الكهف ، الآية ٤٩

لعباده .. وأين ما يتملق الميول الضالة ، ويستهوى الأهواء الحيرى ، من هدايات اللطيف الخبير ؟!

ولقد حرصت على إبراز جانب الهداية فى كتاب الله بجهدى الكليل ، وجدى القاصر إلى المدى الذى استبان لك ، ومرة أخرى ، فما ينبغى أن يكون ذلك آخر عهدنا بكتاب الله تعالى ، فإن مرّ الأيام وتعاقب الأقوام ، ظرف لأحداث ووقائع تجلو مراد الله تعالى من آيات كتابه الباقى ، ويزيد الله بها الذين اهتدوا هدى .

« هذا بصائر للناس وهدى ورحمة لقوم يؤمنون »(١) .

ويا عجباً إن الله تعالى يقول لمصطفاه صلى الله عليه وسلم : « فاستمسك بالذى أوحى إليك إنك على صراط مستقيم * وإنه لذكر لك ولقومك وسوف تسألون »(٢) .

ويدير أقوام للقرآن أقفيتهم ، ولسانهم عربى ، وهم ينتسبون للأمة العربية ، ويتنادون بذلك ، ثم يبعدون بحالهم ، وأقوالهم عن مثل قول الله تعالى : « اتبعوا ما أُنزل إليكم من ربكم ولا تتبعوا من دونه أولياء قليلا ما تذكرون »(٣) .

وشريعة الإسلام قد كفت وشفت وغطت جوانب الحياة ، وأجابت على شتى التساؤلات ، بصريح القرآن ودلالاته ، وجلى ما ترك المعصوم صلوات الله عليه ، وما فهمه الذين قال فيهم : (عليكم بسنتى وسنة الخلفاء الراشدين من بعدى ، عضوا عليها بالنواجذ) متفق عليه .

وصدق الله العظيم : « يأيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم ، فإن تنازعتم فى شىء فردّوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ، ذلك خير وأحسن تأويلا »(٤) .

---

(١) سورة الجاثية ، الآية ٢٠
(٢) سورة الزخرف ، الآيتان ٤٣ و ٤٤
(٣) سورة الأعراف ، الآية ٣
(٤) سورة النساء ، الآية ٥٩

وطاعة الله ، بامتثال أوامره ، واجتناب نواهيه وزواجره ، أول حق لله تعالى على المكلفين ، وطاعة الرسول صلوات الله عليه من طاعة مولاه ، وهى مستقلة بذاتها ، مصداق أن الرسول لا ينطق عن الهوى ، وإنما ينذر الناس بالوحى ، ويدعوهم إلى الله وكلماته بما علمه ربه سبحانه: « اتبع ما أوحى إليك من ربك لا إله إلا هو وأعرض عن المشركين »[١] .

وطاعة أولى الأمر حين يكونون على الإسلام ، ويكون أمرهم بما لله فيه رضى ، ورضى الله عن أمير المؤمنين علىّ بن أبى طالب فقد قال : حق على الإمام أن يحكم بالعدل ويؤدى الأمانة ، فإن فعل ذلك ، وجب على المسلمين أن يطيعوه ، لأن الله تعالى يقول : « إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها ، وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل ، إن الله نعمّا يعظكم به إن الله كان سميعاً بصيراً »[٢] .

ثم قفى الله تعالى ما أمر به من أداء الأمانات ، والحكم بالعدل ، فأوجب طاعته وطاعة رسوله وطاعة الأبرار الذين هم ظل الله فى أرضه ، فلا طاعة إلا للحق والمعروف .

ولكم اختلف الناس فى عصور النور ، فكان فيصل ما اختلفوا فيه هو الردّ إلى كتاب الله ، وإلى رسول الله صلوات الله عليه فى حياته ، وإلى سنته المحفوظة بحفظ الله بعد مماته ، ومجاوزة ذلك خلاف عن أمر الله ، وهَوانٌ فى الإيمان بشهادة قول الله تعالى :

« إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر[٣] » .

لقد اختلفوا فى الرأى والنظر ، ولم تختلف قلوبهم ، لأن الحق كان وجهتهم ، ورحم الله أحمد شوقى فقد قال : (اختلاف الرأى لا يفسد للود

(١) سورة الأنعام ، الآية ١٠٦ (٢) سورة النساء ، الآية ٥٨
(٣) سورة النساء ، الآية ٥٩

قضية) بعد أن قعد الأولون قاعدتهم : (نعمل معاً فيما اتفقنا فيه ، ويعذر بعضنا بعضاً فيما اختلفنا فيه) .

وسعة الإسلام، واستيعابه للأحكام ، ينطق بها الرد إلى الله والرسول ، ولما قرره الثقات من بقاء الاجتهاد مفتوح الباب بشروط ذلك فى أهله وفيمن يرشحهم دينهم وعلمهم بكتاب الله وسنة مصطفاه وعلومهما ، وباللغة وإطلاقاتها ، وبالسيرة وعمل الناس فى خير القرون ، والاستنباط سبيل كذلك للناظرين فى قضايا الحياة وتعرف مكانها من كتاب الله وسنة مصطفاه .

وتقوى الله وخشيته ، وتواضع العلماء ، ضرورية مع كل ذلك ، حتى لا يقدم (مفكرو آخر زمان) بين يدى الله ورسوله ، ولا يجترئوا فى النظر إلى حقائق القرآن والسنة ، ولا يستبد بهم الغرور إلى حد السخرية بالله ورسله وكلماته إليهم ، واستهزائهم بالمعجزات ، وزعمهم أن العلم (علمهم هم) فيه كفاية وغنية عن هدايات الله : « ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب »[١].

رب إن الهدى هداك وآياتك نور تهدى به من تشاء

وأود أن أكون قد أصبت ما أردت من بيان (عنصر الهداية فى كتاب الله) .

والحمد لله مستوجب الحمد من قبل ومن بعد .

---

(١) سورة آل عمران ، الآية ٨

مراجع الكتاب

١ — القرآن الكريم .
٢ — صحيح الإمام البخارى .. شرح فتح البارى .. شرح العينى .. صحيح الإمام مسلم ، وكتب السنن .
٣ — تفسير القرطبى .
٤ — تفسير الإمام ابن جرير الطبرى .
٥ — زاد المسير ، لابن الجوزى .
٦ — فيض القدير ، للشوكانى .
٧ — تفسير المنار ، للإمام الشيخ محمد عبده والشيخ محمد رشيد رضا .
٨ — التفسير القيم ، للإمام ابن القيم .
٩ — أضواء البيان ، للأمين الشنقيطى .
١٠ — البرهان فى علوم القرآن ، للزركشى .
١١ — مناهل العرفان ، للشيخ محمد عبد العظيم الزرقانى .
١٢ — النبأ العظيم ، للدكتور الشيخ محمد عبد الله دراز .
١٣ — كتب (إغاثة اللهفان ، والفوائد ، ومفتاح دار السعادة) لابن قيم الجوزيه .
١٤ — تاريخ الطبرى .. إعجاز القرآن للسيد مصطفى صادق الرافعى .
١٥ — الدعوة والدعاة ، للشيخ على سرور الزنكلونى .
١٦ — الإسلام دين الفطرة ، للشيخ عبد العزيز جاويش .
١٧ — بحوث متناثرة ، للسيد أبى الحسن على الندوى .
١٨ — التسعة عشر ملكاً ، للأستاذ المستشار حسين ناجى محيى الدين .
١٩ — محاضرات فى الحديث النبوى وبحوث للمؤلف .

فهرس الكتاب

الموضوع	الصفحة
المدخل إلى البحث	٥
١ - هـذا القرآن	٥
٢ - حبل الله	٦
الفصل الأول	٩
بين أخذ القرآن والغفلة عنه	١١
القرآن الكريم منهاج خلقي كامل	١١
كان خلقه القرآن	١٢
أصحاب الرسول عليه السلام يلتزمون القرآن	١٣
حين كانوا يقرأون القرآن	١٤
المخلوقات الأخرى والذكر	١٥
الخشوع لذكر الله	١٦
كتاب الله بين أيدينا	١٦
لم نزل القرآن منجماً	١٧
إعداد رباني لنزول الوحي	٢٣
خديجة أم المؤمنين وسيدة نساء العالمين	٢٧
النبي وفتور الوحي	٢٩
كيف صاغهم القرآن ؟	٣٢
الفصل الثاني	٣٥
عنصر الهداية في كتاب الله	٣٧
أهم مقاصد القرآن	٤٢
أسرار الله في خلقه	٤٧

الموضـــوع	الصفحة
هدايتـه للكائنات	٤٧
الهداية بين الله وبين الناس	٤٩
القـرآن المهيمن	٥٣
نظـرية فى كتب الله	٥٣
مدى هيمنة القرآن على ما سبقه	٥٥
القـــرآن يتحدث	٥٦
هل نتدبر القرآن	٥٩
ثمرات تطبيق القـرآن	٦٣
موجبات رحمة القرآن	٦٨
فاستمعوا له وأنصتوا	٦٨
المؤمن الحق	٧٠
مثـــال دال	٧٠
التزام القرآن كما بلغه النبى	٧١
الفصل الثالث	٧٥
أسماء القرآن فى القرآن	٧٧
القرآن ودواعى خلوده	٨٤
القرآن جماع الفضائل	٨٩
إنه النور وحـده	٩٤
من أى قراء القرآن أنت ؟ !	٩٩
الفصل الرابع	١٠٥
القرآن بين أعدائه وأوليائه	١٠٧
ناس من وراء الحـدود يرون النـور	١١٢
نظرات فى القـــرآن ونظرات	١١٨

الموضوع	الصفحة
النبي يضرب الأمثال	١٢٦
أدب تلاوة القرآن	١٣٢
الفصل الخامس	١٣٩
حاجتنا ماسة إلى القرآن	١٤١
القرآن يرسى قواعد الحياتين	١٤٦
مازال القرآن يتحدى	١٥٢
من ملامح المؤمن فى كتاب الله	١٥٧
الفصل السادس	١٦١
الحفاوة بالمرسلين فى كتاب الله	١٦٣
بعض أهل الكتاب فى القرآن	١٦٨
الفصل السابع	١٧٣
عقيدة المسلم	١٧٥
اعرض نفسك على كتاب الله	١٨٠
لا إله إلا الله بحقها	١٨٥
الحمد لله	١٩٠
مراجع الكتاب	١٩٧

• التعريف بالمؤلف •

معوض عوض إبراهيم

- ولد عام ١٩١٢ فى قرية كفر الترعة الجديد ، مركز شربين محافظة الدقهلية ، بجمهورية مصر العربية .
- حفظ القرآن فى كتّاب القرية بإشراف شقيقة له كانت من الحافظات .. رحمها الله ..
- طلب العلم فى معهد دمياط الدينى عام ١٩٢٦ وحصل على الابتدائية عام ١٩٣٠ ، وكان بين طلاب معهد طنطا حتى حصل على الكفاءة عام ١٩٣٣ وعلى الثانوية عام ١٩٣٥
- وفقه الله فجمع بين علوم الأزهر والتعلق بدراسة الأدب وقراءة الكتب ، ومسايرة الحركات الأدبية والعلمية فى هذه الحقبة من الزمن وفيها نخبة الفقهاء والدعاة والأدباء والشعراء ، وكانت له محاولات فى الشعر والكتابة مبكرة .
- كان بين طلاب كلية أصول الدين من ١٩٣٥ — ١٩٣٩
- كان يسهم فى الدعوة هذه الفترة فى الجمعيات الإسلامية ونواديها ومجلاتها حتى تخرج عام ١٩٤١ بإجازة الدعوة من الدراسات العليا بالكلية .
- عمل واعظاً عام ١٩٤٢ متنقلا بين المنزلة دقهلية وأسوان والفيوم وبورسعيد ، وتنقل بالدعوة بين جوانب القطر ..
- سافر مبعوثاً للأزهر إلى لبنان للوعظ والتدريس فى الكلية الشرعية فى بيروت قرابة ست سنوات ، شارك فيها فى الحركة العلمية والأدبية وأعد فى هذه الحقبة للنشر كتابه الأول (الإسلام والأسرة) وكتابه الثانى (قبس من الإسلام) .

- كتب الله لها الذيوع ، فرآها الراءون، وسعد بهما العارفون ووجدهما في مواجهته حين زار اليمن عام ١٩٦٢ فور عودته من لبنان ، وفى الأردن إبّان بعثته إليها (١٩٥٦ — ١٩٥٩) .
- عمل مفتشاً للوعظ ثم مراقباً عاماً للوعظ فى الأزهر الشريف والقوات المسلحة .
- تابع إذاعاته فى مصر وإذاعة جدة ، حيث كان من أوائل من أمدوها بكتاباتهم ..
- أسهم فى الإذاعة والتليفزيون قبل سفره إلى السعودية مدرساً فى كلية الشريعة بالرياض عام ١٩٧٣ لمدة عامين .
- عمل لمدة عام باحثاً علمياً فى رياسة البحوث العلمية والإفتاء والدعوة برياسة الشيخ ابن باز ، وانتهى من بحث (أبي طالب) و (التيجانية) و (الخلفاء الراشدون) .
- عمل مدرساً لمدة ثلاث سنوات فى كليتى أصول الدين ، والحديث والدراسات الإسلامية فى المدينة المنورة حتى آخر عام ١٩٧٩
- كان رئيس إدارة الوعظ فى الكويت من ١٩٧٩ — ١٩٨٧

وفى هذه الحقبة — كما فى السعودية — أسهم فى حقل الدعوة إلقاء وكتابة ، وفى الإذاعة والتليفزيون ، فى الدولتين وغيرهما .

• مؤلفاته •

- صدر له فى الكويت بعد كتبه الأولى :

١ — إنسانية العبادات الإسلامية .

٢ — ملامح هذا الدين .

٣ — الإسلام والأسرة .

٤ — قبس من الإسلام .

٥ — مع الإمام البخارى فى صحيحه .
٦ — عنصر الهداية فى القرآن الكريم .
٧ — وكائز المجتمع المسلم فى سورة الحجرات .
٨ — ذلك الدين القيم .

- هذا عدا بحوث ومحاضرات وندوات إسلامية وأدبية .
- وقد أعد للنشر :

١ — نور من سورة الفرقان .
٢ — الشباب وماذا صنعنا له ؟
٣ — الإسلام يشق طريقه .
٤ — ما قل ودل : فى الدين والأدب والاجتماع .
٥ — من القلب : بعض الشعر الدينى .
٦ — أمة ومنهج .
٧ — التقوى والمتقين .
٨ — السنة النبوية : دراسة ومنهج .
٩ — تحديد النسل ليس هو الحل .
١٠ — أوائل فى مجال القدوة .

- وإنه ليقطع مع الله عهداً أن يؤدى واجبه مااستمسك القلم بيده ومنحه الله القدرة « وما توفيقى إلا بالله ، عليه توكلت وإليه أنيب » .

● ظهر من هذه السلسلة حتى الآن ●

١ – الانتماء فى ظل التشريع الإسلامى : للدكتور عبد الله مبروك النجار .
٢ – السيرة النبوية فى ضوء القرآن والسنة : للدكتور عبد المهدى عبد القادر .
٣ – وباء الفتنة والتعصب وعلاجه فى التوراة والإنجيل والقرآن :
للأستاذ السيد إبراهيم سليم
٤ – سعادة الأمة فى العمل بالكتاب والسنة : (كبار علماء الجمعية الشرعية) .
٥ – المنهاج الكامل فى بناء المسلم المعاصر : للدكتور فؤاد على مخيمر .
٦ – الرسول صلى الله عليه وسلم فى مكة والمدينة : للأستاذ محمد مهدى عامر .
٧ – أهمية الصلاة فى حياة المسلم : للدكتور السيد عبد الحكيم عبد الله .
٨ – فى ميزان الإسلام (الجزء الأول) : للدكتور محمد رجب البيومى .
٩ – أم المؤمنين زينب بنت جحش رضى الله عنها : للدكتور محمد طلعت أبو صير .
١٠ – فى ميزان الإسلام (الجزء الثانى) : للدكتور محمد رجب البيومى .
١١ – قبسات من نور الرسالة : للدكتور محمد أحمد على سحلول .
١٢ – أخلاقنا : للدكتور محمد ربيع جوهرى .
١٣ – التوازن النفسى والاجتماعى فى الإسلام : للأستاذ رمضان الحسنين جمعة .
١٤ – الرسول صلى الله عليه وسلم فى رمضان : للدكتور محمد سيد أحمد المسير .
١٥ – الدوائر الدعائية المعادية للإسلام : للأستاذ حسن على .
١٦ – الرسول صلى الله عليه وسلم – نشأته ودعوته : للدكتور إبراهيم على أبو الخشب .
١٧ – لكى تعود خير أمة : للدكتور السيد رزق الطويل .
١٨ – القرآن يتحدث عن محمد عليه الصلاة والسلام : للدكتور محمد أحمد على سحلول .
١٩ – منهاج الله فى هداية البشر : للدكتور فؤاد على مخيمر .
٢٠ – نحو منهج إسلامى فى الفكر الإدارى : للأستاذ أحمد عبد العظيم .
٢١ – الرسول صلى الله عليه وسلم حول الكعبة : للدكتور محمد سيد أحمد المسير .
٢٢ – صفحات هادفة من التاريخ الإسلامى : للدكتور محمد رجب البيومى .
٢٣ – الإسلام وأهميـة التيامن : للدكتور السيد عبد الحكيم عبد الله .
٢٤ – الإنسان فى مرآة القرآن : للدكتور محمد أحمد سحلول .

٢٥ – الرسول صلى الله عليه وسلم والوحى : للدكتور محمد سيد أحمد المسير .
٢٦ – مجالس العلم فى حرم المسجد : للدكتور محمد رجب البيومى .
٢٨ – من فيض القرآن : للدكتور إبراهيم على أبو الخشب .
٢٨ – نساء خالدات : للأستاذ مأمون يس عبد الله .
٢٩ – الدعوة فى الإسلام عقيدة ومنهج : للدكتور السيد رزق الطويل .
٣٠ – منهج القرآن فى تربية الإنسان : للدكتور محمد عثمان خيمر .
٣١ – ردود إسلامية فى قضايا معاصرة : للدكتور إبراهيم عوضين .
٣٢ – الفتنة المعاصرة وموقف المسلمين منها : للدكتور فؤاد على مخيمر .
٣٣ – العقيدة فى الإسلام منهج حياة : للدكتور السيد رزق الطويل .
٣٤ – الصلاة فى القرآن الكريم : للدكتور فهد الرومى .
٣٥ – حقيقة الإنسان بين المسئولية والتكريم : للدكتور أبو اليزيد العجمى .
٣٦ – هذه دعوتنا : للشيخ عبد اللطيف مشتهرى .
٣٧ – التفسير القرآنى : للدكتور محمد رجب البيومى .
٣٨ – فى المحيط الإسلامى : للدكتور إبراهيم أبو الخشب .
٣٩ – أنت تسأل والإسلام يجيب للشيخ عبد اللطيف مشتهرى .
٤٠ – عبادة الصيام : للدكتور السيد رزق الطويل .
٤١ – من منطلق إسلامى – ج ١ : للدكتور محمد رجب البيومى .
٤٢ – عنصر الهداية فى القرآن الكريم : للشيخ معوض عوض إبراهيم .

• تحت الطبع •

٤٣ – الإسلام دعوة الحق : للدكتور السيد رزق الطويل .
٤٤ – من منطلق إسلامى – ج ٢ : للدكتور محمد رجب البيومى .
٤٥ – موسى واليهود : للدكتور إبراهيم أبو الخشب .
٤٦ – ملامح من هذا الدين : للشيخ معوض عوض إبراهيم .
٤٧ – الرسول وقضايا المجتمع : للدكتور محمد سيد أحمد المسير .
٤٨ – طوبى للغرباء : للأستاذ رمضان الحسنين جمعة .
٤٩ – مع القصص القرآنى : للدكتور إبراهيم أبو الخشب .
٥٠ – اللسان العربى والإسلام معاً فى مواجهة المعركة : للدكتور السيد رزق الطويل .

٥١ — من المثل الإسلامية : للدكتور محمد رجب البيومى .
٥٢ — نظرات فى نظم الإسلام وثقافته : للدكتور مصطفى أحمد أبو سمك .
٥٣ — الإعجاز فى نظم القرآن : للدكتور محمود السيد شيخون .
٥٤ — الإسلام يتصدى لأباطيل المستشرقين والملحدين : للأستاذ سامى محمد شهاب .
٥٥ — إلزام القرآن للماديين والمليين : للدكتور سيد أحمد رمضان المسير .
٥٦ — من حديث القرآن إلى من نزل عليه القرآن : للدكتور محمود بن الشريف .
٥٧ — النظام القضائى فى الإسلام : للدكتور عبد العزيز عزام .
٥٨ — قبس من الإسلام : للشيخ معوض عوض إبراهيم .
٥٩ — السنة المطهرة بين أصول الأئمة وشبهات صاحب فجر الإسلام وضحاه : للدكتور سيد أحمد رمضان المسير .
٦٠ — الدار الآخرة : للشيخ عبد اللطيف مشتهرى .
٦١ — المخدرات وباء الشعوب وسرطان العقول : للدكتور فؤاد على مخيمر .
٦٢ — المرأة فى رحاب القرآن : للدكتور محمد أحمد على سحلول .
٦٣ — الجانب الأخلاقى فى العبادات كما تصوره السنة النبوية : للدكتور محروس حسنى عبد الجواد .
٦٤ — قبس من هدى الصلاة : للأستاذ على مرسى .
٦٥ — مع الإمام البخارى فى كتاب العلم من صحيحه : للشيخ معوض عوض إبرهيم .
٦٦ — خصائص القرآن الكريم : للدكتور فهد الرومى .
٦٧ — أخلاق إسلامية من القرآن والسنة : للدكتور الحسينى أبو فرحة .
٦٨ — الإسلام وأحلام العصر : للدكتور محمد عبد المنعم خفاجى .
٦٩ — الرسول والموافقات : للدكتور محمد سيد أحمد المسير .
٧٠ — الإسلام دين الحياة : للدكتور محمد عبد المنعم خفاجى .

رقم الإيداع ٤٧٥٤ / ١٩٨٨
الترقيم الدولى : ٦ــ١٩٢ــ١٦٣ــ٩٧٧

المطبعــة العربيــة الحديثــة
٨ شارع ٤٧ بالمنطقة الصناعية بالعباسية
تليفــــون : ٨٢٦٢٨٠ القـــاهرة